

ثنائية الدم

LILIAN

ثنائية الدم (ليليان)

محمد عبد القوي مصيلحي

رقم الإيداع: 2018/7650

I.S.B.N:978- 977-6640-26-9

الطبعة الثالثة ، 2018م



للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01147633268 - 01099387500

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com

Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة ©

محمد عبد القوي ومصيلحي

ثنائية الدم

LILIAN

إنك لن تموت فيها ولن تحيا

رواية



"لن تستطيع أن تجيب من يسألك عن اسمك الحقيقي..

ستظل ملعوناً إلى الأبد.. إلى الأبد..

ستظل ترحل قاطعاً الأرض من المشرق إلى المغرب بلا هدف..

إلى الأبد.. إلى الأبد..

ستظل تحمل فوق كتفيك جرمك

وتحمل أمام عينيك ما أسلت من دماء.. إلى الأبد..

هذا لأنك لن تموت، كما أنك لن تحيا بعد الآن.....!"

مبتدأ

حكاية قرية هادئة، صارت أكثر هدوءاً!

لا تهمنا معرفة المكان إلى حد كبير. لم هذا الاهتمام الجنوني بمكان وقوع الأحداث، الذي ربما كان يفوق اهتمامنا بمعرفة الحدث ذاته؟! علي كل حال هي بلدة صغيرة باردة، وأوسط الساحل الجنوبي لبحر الشمال. ربما كانت تقع في فنلندا أو النرويج، ربما كانت سويسرا. لا أحد في البلدة يعلم على وجه الدقة، أو يهتم، المهم أنها موجودة، وكذلك الكثير من الثلوج، والقليل - أقل القليل - من الفراء، من الأكواخ، من الذئاب البيضاء، من الأسماك، ومن البشر الذين تشبه عيونهم عيون الأسماك.

الزمان: بداية العقد الأخير من القرن السابع عشر، أو ربما كان الأول من الثامن عشر.

الحدث: لا شيء! بكل تأكيد، منذ نشأة الحياة على هذا الكوكب العجوز، وإلى قيام الساعة، ستظل الأشياء تحدث، ولن يتمكن مخلوق من إيقافها. ولكن هنا، في مثل هذا المكان، والآن، في مثل هذا الزمان الذي ليس كمثله زمان، ليس من المعتاد ولا المتوقع ولا المستحب أن يحدث أي شيء!

الحياة هادئة، أكثر مما ينبغي ربما. لدينا هنا - على الرغم من فقرنا الواضح، وحاجتنا الدائمة إلى الحطب والنبيد، كل شيء. نحن نعتبر أنفسنا أغنى أهل الأرض، والسبب أننا نتمتع باكتفاء ذاتي لا حد له، فالديبة تمنحنا الفراء مجاناً. صحيح أنها لم تعد وفيرة العدد، لكننا كذلك لا نتكاثر بالسرعة التي تظنها. كنت في شبابي أو من بأن هذا الكم

المهول من الثلوج، قادر على تجميد كل شيء، إلا المشاعر الإنسانية..
الآن أو من أنه ليس من العيب أن نعتزف بخطأ معتقداتنا القديمة.

لذا يمكنك تخيّل أن كل حالة وفاة لدينا، تقابلها حالة أو اثنتين -
علي أقصى تقدير - من المواليد، وهو معدل، بالكاد، يضمن حمايتنا
من الانقراض.

الغابات من حولنا لا تنتهي، أشجارها أبدية، لكنها غالبًا خضراء
طرية، لا تصلح لأن تكون حطبًا جيدًا، ليس في وقت قطعها على كل
حال. لدى كل منا كوخه، وزوجته، وحرته الخشبية التي يصطاد بها
الحيتان الصغيرة، وهذا طبعًا بغرض التغذية وليس التجارة إن كان
هذا قد جال بخاطرك.

يمر من أمامي أحدهم، مدثرًا كالعادة بفرائه الكثيف - أعنى فراء
الدب الذي اصطاده، هو أو أحدهم - وهو يمسك حرته متجهًا نحو
المياه..

"تحية يا أبتاه.. هل أحضر لك سمكة معي؟"

"من أنت أيها الفتى؟"

"أنا ابن سيتجوود الحمال.. والآن ما رأيك في سمكة صغيرة
طازجة؟"

"لا مانع، بالفعل لدي الكثير من الأسماك المملحة، ولكن لا بأس
بسمكة إضافية صغيرة، نحن في بلد لا تتعفن فيه الأسماك على أي
حال"

يرمقني في بلاهة غير فاهم..

"تت ماذا؟! ما معنى تتعفن هذه يا أبتاه؟"

"لا عليك، لم يزل لديك المديد من العمر، لتتعلم الكثير من الأشياء. هلم، احضر طعام الغداء بلا تأخير"

احترامًا لصِفتي، هز رأسه وانصرف دون كلمة. فأنا لهم بمثابة أب روحي. لست طوطمًا أو معبودًا وثنيًا، فنحن نعرف المسيح جيدًا، ولكن يمكنك اعتبار أن كوني أكبرهم سنًا، جعل مني بالنسبة إليهم، رمزًا تراثيًا، يحترمونه ويحبون وجوده ويثقون به. اسمي بالمناسبة هو (رو الكبير).

قبل أن يقاطعنا هذا الفتى كنا نتكلم عن..

التجارة، لقد كففتنا عنها منذ زمن طويل جدًا، منذ آخر تواصل بيننا وأي من البلدان المجاورة أو البعيدة. بكل تأكيد، لم نجرب الزراعة ولا نعرف ما هي، وإن كنا نسمع أحيانًا أن هناك قوم، في الجنوب، يفعلون. هؤلاء لديهم ثلوجًا صفراء وحمراء وسوداء.. وغالبًا ما تكون دافئة!

ويقال أيضًا، إمعانًا في الأسطورية، إن البحر لديهم مسكّرًا وليس مالحة كبقية بحار الدنيا! نحن نعتمد في مشربنا على المياه الجوفية الدافئة. أو إذابة الجليد، لذا لن تجد بيننا من يمكنه تصديق، أو تخيل وجود نهر من الماء العذب، في الفردوس فقط توجد هذه الأشياء. لكن العائدون القلائل يؤكدون هذه الحقائق ويسلمون بها. لن يدهشني لو كان هنالك قوم ذوي ستة أذرع، أو يسيرون قفزًا على رؤوسهم بالمقلوب، أو حتى كانوا ذوي بشرة سوداء كالفحم. لن تنتهي العجائب من هذا العالم!

هذه هي حياتنا منذ مئات السنين، ولأنها حياة هادئة، أكثر مما ينبغي، كان من المذهل في رأيي الخاص، أن يحتملها أو يرضى بها إلا شخص نشأ وترى بها منذ نعومة أظافره، وبالتالي ستجد أنه من

المستحيل، بل ومن الخارق للطبيعة، أن تستقبل بلدتنا الجميلة فتي وفتاة غريبين عنها، خاصة لو كانا قد أتيا بغرض الإقامة المستديمة.

"متى تنويان الرحيل؟!"

تحدث الفتى بتلك اللغة العجيبة، التي لم أفهم منها حرفاً، ويبدو أنه هو الآخر لم يفهم سؤالِي، لأن تعبير وجهه كان ينم عن استفهام وليس عن ثقة. أما الفتاة الحسنة، جداً لو أردت رأيي، فتأملت عينيّ للحظات بشكل جريء مقتحم، لم تسمح لي سنوات عمري التي جاوزت التسعين، بأن أعتبره نوع من الإعجاب. ثم قالت بذات لغتي:

"لا ننتوي الرحيل يا أبتاه، إن لم يكن يزعجكم وجودنا قطعاً"

أدهشتني إجابتها الواثقة المباشرة المهذّبة، لكنني لم أهتز، وتمكنت من كتمان مشاعري قائلاً:

"المشكلة أن الإزعاج لن يكون من نصيبنا نحن، صغيرتي الحسنة"

استشعرتُ شجاعة وصدقاً في لهجتها إذ قالت:

"اطمئن يا أبتاه. لست الفتاة الرقيقة المرفّهة التي تتصوّر. لقد عانيتُ كثيراً، وعشت في بيئات أشد قسوة. بل إنني خضت من المعارك أشرسها، وأكثرها دموية مما لن يمكنك تخيله. ثق أنني قوية بما يكفي، لحماية نفسي وصدريقي وأهل البلدة أجمعين لو تطلّب الأمر، وعلى فكرة: لديّ العديد من الهدايا لكم، أشياء سوف تحبونها كثيراً، ولسوف تعتبرونها معجزات لأجيال كثيرة قادمة. يمكنكم الاعتماد عليّ بشكل كامل، كل ما أنشده فقط هو مكان لنحيا به، وأهل"

هذه المرة، لم أتمالك نفسي من إبداء دهشتي، لكنها استدركت بلهجة تحذيرية:

"هذا في حالة ما لم يكن مصدر الإزعاج هو أهل البلدة ذواتهم!"

"إلى متى سنظل هارين هكذا؟ ألم يحن وقت الاستقرار بعد؟"

في كوخهما الثلجي، التفتت إليه وتأملته قليلا قبل أن تقول:

"وماذا نفع هنا برأيك؟"

"ومن أدراك أنهم لن يتوصلوا إلى مكاننا هنا؟"

قالها مرتجفاً، فقالت بنعومة:

"خائف؟!"

"لأقصى حد! ولكن ليس على نفسي، بل عليك أنت.."

"لا تخف، أنت تعلم أنني قوية بما يكفي للتغلب عليهم.. ألسنتُ

كذلك؟"

"بلى، ولكنهم في كل مرة كانوا يستطيعون التوصل إلى مكانك،

وأخشى أن يتمكنوا من اللحاق بنا إلى هنا، و.."

لم يستطع إتمام عبارته لفرط انفعاله، فمسحت فوق رأسه في

حنان:

"أمازلت تحبيني؟"

"أنت تعلمين"

"حتى بعدما علمت أنني أعطيتك وصفة سحرية للحب؟!"

"لست أدري لمَ بذلت كل هذا الجهد؟ فأنا واقع في هوائك بالفعل،

إلى أقصى مدى.."

فارقته وحركت قدميها في أرجاء الكوخ، وقالت بحزن:

"كان لابد من ذلك، فأنت نقطة ضعفي الوحيدة.. ولم تكن لتقبل بي لولا أن فعلت ذلك. أنت تعلم كم أحبك، من غير المنطقي أن تقع من هي مثلي في الحب، ولكن هذا ما حدث بالفعل. هل كان يمكن أن أضيع فرصتي الوحيدة برأيك؟"

تقدم نحوها متعاطفًا..

"وهل سبق أن رفضت حبك من قبل؟"

دمعت عيناها وهي تهز رأسها إيجابًا:

"لقد خفت مَنِّي، وقررت الابتعاد!"

احتوى وجهها بين كفيه..

"هل أنت واثقة من أنني فعلت هذا الجرم؟"

هزت رأسها ثانية، فرفع وجهها إليه وهو يمسح دموعها مبتسمًا..

"أنا على أي حال لا أذكر حرفًا مما قلت، أشعر أنني أحبك منذ ولدت. ما رأيك إذن؟"

تمكنت من رسم بسملة على شفثيها الرقيقتين، فتابع..

"رجاء، لا تثيري هذه النقطة مجددًا، أرجوك"

"حاضر"

"لديّ رجاء آخر أشد أهمية، لو كان هذا الكلام صحيحًا، فلا تحاولي إبطال عمل هذه الوصفة، لا أستطيع تخيل شكل حياتي بدون حب هذا الملاك الرقيق الذي هو أنت، ولن أتحمّل الفراغ الرهيب الذي سيجتاح عالمي لو قررت الابتعاد"

ألقت بنفسها بين ذراعيه، وأسبلت جفنيها هامسة:

"لن يحدث، إنها لعنة أبدية رغماً عن أرادتنا.."

مال عليها، وأطبق على شفها العليا شفتيه، في تلذذ وافتتان.
فضيقت من حول خصره عقدة ذراعها بنعومة، حينها تصاعدت
الطرقات الهادئة على باب الكوخ، فخرجت منه في الحال، وابتعدت
خطوتان، قبل أن تهتف بحزم:

"من بالباب؟"

"ومن يجرؤ على طرق باب هذا الكوخ، غير رو الكبير يا بنيّتي؟"

رسمت فوق وجهها تعبيراً رسمياً..

"تفضل يا أبتاه، الباب مفتوح"

ببطء وكياسة، دخل رو إلى المكان..

"معذرة، لكني أردت التحدث إليك قليلاً.."

"ماذا لديك؟"

تقدم منها وهو يبتسم في غموض..

"مفاجأة!"

"هل قلت: مفاجأة؟!"

"بل اثنتين في الواقع. أنت تعيشين بيننا منذ شهر واحد، لكنك
قدمت للناس هنا خدمات جليّة حقاً، أنت علمتهم كيف يبنون
الأكواخ الثلجية الدافئة من الداخل، وغير القابلة للذوبان، صنّعت
لهم الأضواء والألوان، استخرجت لهم الزيت، جففت الحطب،
وصنّعت النبيذ من لحاء الشجر"

"لقد صاروا أهلي، منذ وطئت قدمي أرضكم البيضاء"

"هل تعلمين ماذا يطلق عليك أهلك؟ إنهم يدعونك (هدية السماء)، ولأنهم أحبوك كثيرًا، فقد عملوا معًا على إعداد هدية تليق بمقامك، وتكون وسيلة للتعبير عن هذا الحب، وأنا هنا الآن كي أصحبك حتى ترين هديتك.. هلاّ خرجت معي لرؤيتها؟"

لم تدر لماذا توجّست، لكنها نجحت في اصطناع بسملة مسرورة..

"الآن؟!"

"بالتأكيد.. الكل مستعدّ بالخارج، فلم التأخير؟"

خرج رو من الكوخ، ومن خلفه خرجت وفتاها، متشابكي الكفين. كان مرعوبًا، وكانت مترقبة. أوشكت الشمس على المغيب، وما من أحد بالجوار، حتى المصابيح كانت مطفأة..

"أين الناس؟"

"عند مدخل الغابة.."

كانت قلقة، لكنها لم تكن خائفة. صحيح أن القمر كان محاقًا، والاتصال كان شبه منعدم، ولكن كل وسائلها الدفاعية كانت تعمل كما يجب.. ليس في البلدة غريباء، والكل يفهم أنها مجرد عالمة في الرياضيات والكيمياء، فرت من أهلها إلى شمال أوروبا، وارتحلت لتتعلم وتحمي نفسها من بطش الملك، في زمن كان حرق العلماء فيه وسيلة للتباهي والترفيه عن الرعيّة. لكنها كانت تشعر برهبة عجيبة ما لها من تفسير. إلى أين يقودنا هذا العجوز؟ على كل حال لن يتمكن هذا الرجل من إيذائها لو حاول، وحتى لو اجتمع معه أهل البلدة كلهم، لما تغلبوا عليها.

سارا خلفه، حتى وصلوا إلى مشارف الغابة القريبة. بساط أبيض شديد النعومة، يغطي كل شيء، صار لونه درجة من درجات الرمادي،

بفعل انسحاب الشمس إلى ما خلف الأفق، واجتياح الكحلي الموشى
بنقاط فضية متناثرة، فاستحالت الأشجار العملاقة إلى أشباح خيالية
هائلة الحجم. توقف رو الكبير فجأة، والتفت إليهما مبتسمًا فاتحًا
ذراعيه..

"الآن..!"

وفي لحظة واحدة، استحالت الظلمة الوليدة نهارًا، وكأن الشمس
قد وثبتت فجأة إلى كبد السماء! عشرات، مئات.. بل آلاف الكرات
المضيئة الصغيرة، طُفَّت فوق رؤوسهم، وظَلَّت تعلقو حتى تخطت
مستوى قمم الأشجار. وراحت العديد من الألعاب النارية الملونة،
تتفجّر وتتواثب في الهواء بلا نهاية. لم تصدق عيناها، حين رأت
الشرارات اللامعة الملونة تتقارب في السماء بشكل مقصود، وتتجمّع
لترسم صورة عملاقة لوجهها الباسم، هناك فوق الرؤوس، قبل أن
تتفرق كنقاط مضيئة صغيرة، ثم تختفي ليتولد غيرها!

ومن بين الأشجار خرج كل أهل البلدة، نساء ورجالًا وأطفالًا،
للاحتفال. كان الكل مبتسمًا يتصايح في سعادة، والمدهش أنهم لم
يكونوا يرتدون الفراء. من الواضح أن المكان كله محاط بقُبة عازلة،
علمتهم هي كيف يصنعون مثلها. لم تكن كل تلك الأشياء لتدهشها في
الواقع، لكن ما عجزت عن تصديقه هو القدرة الهائلة على الاستيعاب
لدى هؤلاء البدائيين. هي علمتهم كيف يصنعون كل تلك الأشياء،
فليس السحر كله تعاويد غامضة وقدرات خارقة، بل أنه في معظمه
عبارة عن تطبيقات لعلم الفلك والكيمياء والطبيعة والنفس. هي
علمتهم بعضها، أقل القليل من بعضها.. لكن هذا العمل كان يستلزم
تعاونًا كبيرًا. ليس تعاونًا فقط، بل وصبر، وتجربة، وقدرة استيعاب
هائلة، واستعداد مهاري.. والأهم من كل ذلك، إخلاص عميق لما
يقومون به. واعترفت لنفسها بأنهم أثاروا دهشتها حقًا، بل وأبهروها.

ومن بين طوفان البشر الذي انقض عليها في سعادة، ظهر رو الكبير ليخلصها والفتى، ضاحكًا في استمتاع..

"ما رأيك؟ انتظري، ليس هذا كل شيء"

طارت العديد من الكرات المضيئة والتحمت معًا، فوق شيء ما يقف منتصبًا في الظلام، وقد تمت تغطيته بقماش داكن، وأضاءت فوقه شمسًا صغيرة.

"تقدمي، واكشفي الغطاء بنفسك"

احتبست أنفاس القوم انتظارًا لرد فعلها، تناول الفتى كفها وهو يبتسم في سعادة وتشجيع، ويقودها نحو الشيء، وامتدت يدها ببطء وترقب لتسحب الغطاء.. لكنها لم تفعل، لأنه في ذات اللحظة تقريبًا وقعت الكارثة التي قلبت كل الموازين، وغيرت مصير هذه البلدة البائسة إلى الأبد..

الهلول..

الرعب، النار، الدم!

إن آخر ما رأت عيون أهل البلدة من صور الحضارة والتطور، كانت الزلاجة المعدنية التي تجرّها الكلاب.. ويومها، منذ شهر تقريبًا، وهي الفترة التي قضتها الفتاة وفتاها في البلدة، منذ جاء على متنها، أصيب الجميع بالرعب والفرع، حتى شرح لهم الأب رو الكبير الأمر، فبدأ روعهم، واستكانوا، ونسوا الموقف بمرور الوقت. ولكن في يومهم هذا، لم يفهم الأب رو الكبير ولم يستوعب ما رأت عيناه، ولا ما سمعت أذناه.. والتفت الكل نحو وجهه طالبين أي تفسير، فلم يروا إلا الخوف والذعر والحيرة.

فجأة تصاعدت أصوات قوية تهمدر، وتقرب بسرعة. أصوات حوافر خيول، مختلطة بأصوات هدير صاحب يصمّ الأسماع. وفي لحظة

واحدة. وجد القوم عدة عربات هائلة الحجم، ذوات عجلات، وتجرها خيول ليست كمثلها خيول. أحاطت بهم من كل صوب، والجليد يتطاير في الظلام من حولهم كالكابوس.. وفوق العربات كان رجال، ليس كما يبدو البشر! كانوا وكأن الجحيم قد انشق عنهم، ولفظهم، بوجوههم الغاضبة الشرسة، وأحجامهم العملاقة المهولة، وتلك الأشياء الطويلة السوداء في أيديهم، والتي من المؤكد أنها تسبب الأذى والموت. طفقت الفتاة تتأملهم مذهولة، غير مصدّقة، وقد تسمّرت في وقفها كالمشلولة. بينما قفز الفتى أمامها، ليحول بينها وفوهات الأشياء القاتلة، ودموعه تنهمر في غزارة. كانوا يتحدثون لغة غريبة لم يفهمها أهل البلدة، لكن الأب رو المدعور استطاع على الأقل تمييزها، إنها ذات اللغة التي حاول الفتى التحدث بها يوم وفد إلى البلدة. وليس معنى هذا أنه فهمها، لكنه على الأقل فهم أن هؤلاء الدخلاء قد أتوا من موطن الفتاة وفتاها.

كان من بدا وكأنه قائد المجموعة، يبتسم في ظفرو وحشية.. موجهاً حديثه إلى الفتاة، التي كانت ترد بكلمات حذرة، مما جعلها تبدو وكأنها تفكر في مخرج من هذا الموقف. وكان الفتى لا ينفك يردد كلمة واحدة أو كلمتين من بين دموعه التي راحت تنهمر في غزارة. وكان الموقف بأكمله غامضاً، عصياً على التفسير، لكن الأب رو تقدم بشجاعة نادرة من عربة القائد، وشد قامته معتدلاً قبل أن ينطق بصوت قوى:

"لا أعلم إن كنت تفهم حديثي أم لا، لكنني على أي حال أحذرك من أن.."

ولم يتم العجوز حديثه، لأن الرجل وكزه في صدره بعصاه السوداء في عنف، ليسقط أرضاً. التف من حوله بعض رجال وشباب البلدة في جزع يعينونه على النهوض. أشار القائد إلى أحد جنوده، ثم صاح

بعبارة ما ترجمها ذلك الرجل على الفور.. كان الحديث موجهاً إلى الفتاة، ولكن من الواضح أن القائد أراد لأهل البلدة أن يفهموا ما يقال:

"إنهم قوم ضعفاء مسالمون، ليس من العدل أن يتعرضوا بسببك لكل هذا الهول. من الأفضل أن تأتي معنا في هدوء"

"لأبد أنك شجاع بما يكفي أيها القائد.." - ترد الفتاة - "شجاع أو أحمق كي تقف أمامي أعزلاً، إلا من تلك البندقية المضحكة. ألم يخبرك عتي من أرسلك خلفي؟"

"أخبروني أيها الجميلة، لكنني لست خائفاً منك، يمكنك أن تربني أفضل ما عندك!"

"هكذا إذن؟!"

رفعت يديها نحو السماء، ثم راحت تهمس بعبارات غامضة معقدة. لكنها توقفت فوراً، حين رأت فتاتها وقد اختطف من أمامها، وأحد الرجال يسلط علي عنقه سيفاً مخيفاً..

"يمكنني تحويلكم جميعاً إلى حفنة من التراب في الحال، إن حاولتم المساس به"

"سيسعدني أن يتم هذا على يديك أنت بالذات! وسيسعدني أكثر أن يكون آخر ما أقوم به في هذه الحياة، هو جزعنق هذا الوسيم!"

ولدقائق تجمد الموقف بين الجميع، ثم في لحظة واحدة حدث ما لم يكن متوقعاً. فجأة، اختفت الفتاة من مكانها، وظهرت خلال لحظة واحدة، خلف رو الكبير تماماً. والمدهش أكثر أنها أخرجت من ثوبها خنجرًا، وضعت على عنق العجوز المذعور الغير مصدق، بينما كل أهل البلدة يرمقونها برهبة ورعب وتكذيب لما يرون..

"أنت بالتأكيد لا ترغب في إيذاء هذا العجوز.. أطلق سراح صديقي!"

"لن ينجح هذا، استسلمي برفق وهدوء"

"سأقتله!"

"قلت: لن ينجح هذا"

"هل تراهن؟"

"لست في حاجة إلى ذلك"

والتفت إلى أهل القرية في أسف..

"معذرة يا قوم، لكن الأوامر واضحة غنية عن التفسير: عنقها، مهما كان الثمن"

قبل أن يفهم أمهم كلمة واحدة، أصدر القائد إشارة خاصة بيده، خرج على إثرها من العربات أكثر من مئة جندي يحملون البنادق، ويصوبونها نحو أهل البلدة. ورغم الرعب في العيون، وبرغم صرخات الأطفال والنساء والرجال العاجزين، صدرت الإشارة الثانية، لينتهي كل شيء.

دقائق مرت، وكأنها سنوات كاملة. هدأت الثلوج الثائرة، وانقشع الدخان الناجم عن البارود، ولكن الرائحة لفترة طويلة أبت أن تفارق الأنوف.. رائحة الدخان والدم والموت.

وظفق الفتى يصرخ وينتحب كالمجنون، بينما كانت الفتاة تنظر إلى المشهد بثبات، وقد قطبت جبينها في غضب..

"لماذا؟"

قال الأب رو الكبير في هدوء ذاهل..

"أنت السبب يا هدية السماء. لقد وعدتني بأن.."

"أمازلت حيًّا؟!"

بووووم!!

هكذا تكوّمت جثة جديدة تحت قدمي الفتاة، بينما قال القائد:

"بالتأكيد لم أحب أن يحدث هذا، لكنه حدث! أنت تعلمين كما أعلم، أنك الآن في أضعف حالاتك، القمر مختفٍ كما تلاحظين، لذا فالاتصال بينك وإياهم شبه مقطوع، وهذا هو الوقت المناسب. على كل حال أنا لم أكن شريراً إلى هذا الحد، لقد أنهيت متاعب هؤلاء البؤساء إلى الأبد، بينما كان ينتظرهم على يديك مصير أكثر شناعة وهولاً.. ثم إن هذه البلدة لم تكن لتصير نهاية رحلتك، بل لقد كانت مجرد بداية، ولكن كل هذا قد انتهى الآن"

لم ترد، فأكمل الرجل:

"في هذه المرة تعلمنا من أخطائنا، واستعنا بساحر مثلك. عفوًا! ليس مثلك، لكنه على الأقل يعرف ما يجب فعله.. تم إبطال عمل دفاعاتك التي أحطت بها البلدة، وتم اختيار هذه الليلة بالذات، لسبب سبق وأخبرتك إياه: حالة القمر.. إنها نهايتك"

"أنت واهم، فأنا لم أفقد كل قدراتي بعد. لازلت أعمل!"

ومن بين رجال القائد، سقط أحدهم صريعاً دون سابق إنذار..

"الساحر؟! أشكرك، فقد وفرت عليّ ثمن الرصاصة!"

"ماذا تظن أنك فاعل؟"

ابتسم القائد في سخرية..

"ماذا تظنين أنت؟!!"

لكنها لم تفكر في إجابة، يبدو أن أحد الجنود من حاملي السيوف قد تسلل من خلفها دون أن تدري، لأن رأسها لم يعد في مكانه السابق!

"هل فعلتها حقًا؟! لا أصدق!"

نطق بها القائد مذهولاً..

"هل حقًا انتهت المأساة، وبهذه البساطة؟!"

تخطى الجندي جثتها، وحاذر أن يخطو بقدميه في بركة الدم الآخذ في التدفق، ثم ألقى بسيفه الدامي قائلاً في كياسة:

"أعتقد سيدي القائد أن كل شيء قد انتهى أخيرًا. ولكن، أخشى أن نكون قد ارتكبنا خطأ ما!"

التفت إليه قائده في تساؤل، فتابع..

"أعني، لقد أصدر جلالته الملك أوامره بإعدام الساحرة حرقًا كما جرت العادة"

صمت القائد لثوان، متأملًا إياه. ثم أشار إليه بالاقتراب، ووضع يده على كتفه، هامسًا بصوت كالفحيح:

"هل تعتقد أن هناك من سيخبره؟"

انتفض الجندي في رعب..

"لا أعتقد، من منا يأمن رد فعل جلالته؟ لكنه طلب رؤية رمادها بعينيه، بل وطلب ما سوف يتبقى من عظامها لغرض في نفسه لم يبينه"

تفكر القائد حيناً..

"لا بأس.."

ثم التفت إلى جنوده..

"استعدوا لنصب الوتد. وأنت، احضر بعض الحطب من العربة..
فقد حان وقت تنفيذ حكم الإعدام.. رسمياً"

لم يطمئن القائد ورجاله، إلا عندما رأوا النيران وهي تلتهم الجثة
مقطوعة الرأس. حينها فقط بدا لهم أن هذا الهول، الذي بدأتها تلك
الشيطانة قد انتهى، وما من سبيل لبذئه من جديد. لكن أحدهم أبدى
ملاحظة ما..

"لقد كان ماركو يسلط سيفه على عنق الفتى، رفيق الساحرة
طوال الوقت.. فإن كانت هذه هي جثة ماركو، فأين ذهب الفتى إذن؟!"
انطلق بعض الرجال إلى البلدة لمحاصرتها وتفتيش الأكواخ،
وانطلق البعض الآخر للبحث بين الأشجار..

"لا توجد مشكلة في ارتفاع قمم الأشجار، بالفعل نحن نعجز عن
تسلقها للبحث عنه بأعلى.. لكن هذا يعني أنه هو الآخر يعجز عن
تسلقها للاختباء"

"أيها الغبي، هل نسيت أنه كان صديق الساحرة؟ لا يمكنك توقع ما
تعلمه على يديها!"

"وما العمل إذن؟"

"أحرقوا الغابة!"

لكن القدر لسبب ما، لم يمنحهم مهلة لإيجاده، فقد حدث كل شيء بسرعة. رياح خفيفة في البداية هبّت على الغابة، فانطفأت الشعلة الأدمية التي تفحمت عن آخرها. ومع اشتداد الرياح تدريجيًا، بدأ الرماد في التطاير، حتى لم يعد باقياً منه أي أثر.. ومع تحول الرياح إلى عاصفة، بدأت العظام ذاتها في التفكك والتناثر قبل النهاية.

النهاية المفاجئة التي أنت، وكأنها لمسة احتجاج أخيرة على اغتيال هدية السماء، أو على هذه الدماء البريئة لأهل البلدة، التي تم إهدارها الليلة، فوق الثلوج البيضاء النقية. وقد أتت في صورة عاصفة ثلجية هائلة الحجم، بدأت في الارتفاع كجدار رهيب، حتى كادت تبلغ عنان السماء. ولم يشفع صراخ الجنود ولا ركضهم المتخبط، وتشبثهم الساذج في عوارض العربات، أو جذوع الشجر، في منع النهاية الحتمية. وأخيرًا هوت العاصفة، مثل كف عملاق يهوى فوق حشرة دقيقة، بمنتهى القوة.. هبطت فوق كل شيء، وخلال دقائق ثلاث، كانت المسافة ما بين الأرض وسحب السماء المدلهمة الظلمة، عبارة عن بياض لا متناه، وكأن كل ثلوج الأرض قد تجمعت هنا..

وعندما هدأت العاصفة، كان كل شيء قد انتهى بالتبعية، ولم يعد هنالك من أثر لأي شيء بالمرّة. لا الجنود وقائدهم، ولا الوند المحترق، ولا كل جثث أهل البلدة.. ولا الأكواخ والعربات والخيول. وعلى مسافة مئة وعشرة كيلومترات، وهي حدود الغابة، لم يكن هناك من أثر إلا لشيين اثنين: الشجر، والجليد.

منذ أقل من ساعة، كانت مجرد قرية هادئة أخرى.. والآن، صارت أكثر قرى العالم هدوءًا، على الإطلاق!

الفصل الأول

الْبَعَث

1

تتأمل الكلمات المترابطة أمامها، وتأسرها رائحة الكتاب، ولملمس صفحاته، وبريق غلافه الأخاذ، الذي يحمل ملامح وجهها الفاتن، في نظرة تأملية شاردة، يبدو أن المصوّر تعب كثيرا حتى استطاع نيلها. تقلبه بين أصابعها، وهي عاجزة عن مواصلة القراءة. يمتلكها شعور قاس بالوحدة كلما طالعت صفحة أخرى من مذكراتها، وهي التي تصوّرت أن الكتاب هو الوسيلة المثلى للتعجيل بشفاؤها واستعادة ذاكرتها المفقودة بعد هذا الحادث المروّع.

تلقي بنظراتها إلى رحلة طويلة غير معلومة المدى، وتحاول اختصار المساحة التي يحتلها البحر الممتد أمامها للأسفل إلى ما لا نهاية. وكأنها تبغي الوصول إلى الضفة البعيدة، دون أن تنهض من مجلسها في هذا المقعد الخيزراني الوثير الأسر.

تضطر لإنزال العدسات السوداء فوق عينيها الجميلتين، لأن الشمس كانت تتصرف بقلّة ذوق متعمدة في هذا الوقت من الظهيرة، على الرغم من انتصاف يناير منذ يومين. ثم همس شيطان الكسل في أذنها، لترفع ساقيها وتريح قدميها على المقعد المقابل، وتضع الكتاب فوق حجرها، قبل أن تغمض عينيها زاعمة لروحها أنها تستطيع النوم إن أرادت.

ظلام..!

هواء بارد.. من خلف التل البعيد.. تتصاعد أصوات عواء الذئاب..
مخيفة.. ثمة رجفة مفاجئة تجتاح أوصالها.. هل هو البرد، أم
أنه.....!

تلمح الضوء البعيد.. تركض إليه ركضاً أقرب للزحف.. لكنها تصل
في النهاية..

مهما كان الطريق طويلاً، كانت ستصل..

فقط لو يكف ذلك الذئب الملعون عن إخافتها..

فقط لو يكف القمر عن احتجابه السخيف..

فقط لو تكف تلك الرياح الباردة عن مداعبة أطراف ثوبها في
خشونة..

فقط لو طال عمرها قليلاً..!!

ولكنها رغم كل ذلك تصل في النهاية.....

اليوم، وبعد مرور أسبوعين كاملين على يوم استيقاظها للمرة
الأولى، ليلى تفهم ما حدث أو معظمه. لم تتذكر ولكن حكمت لها منار
وبقية الممرضات بعض الحكايات التي لم ينفها الكتاب. صارت تعرف
بعض الأشياء لكنها لا تملك القدرة على التفاعل مع ما عرفته، وكأنها
تقرأ عن أخرى.

إن أعظم هدية يمكن لفاقد الذاكرة أن يقدمها إلى نفسه، هي أن
يكتب مذكراته احتياطياً، قبل خوض التجربة. لكن جرساً لم يدق
ومصباحاً لم يومض هنالك. كان الشعور بالعجز يتزايد، والأمل

يتضاءل بداخلها، ولكن نوعٌ من الهدوء قد تسرب إلى روحها، حين اطمأنت إلى وجود من يرعاها ويقوم على خدمتها باستمرار. إن المستشفى الكبير ملك لزوجها، الذي لم تره بعد، وجميع إمكاناته الطبية والمادية طوع يمينها، وقد اختاروا لها جناحًا ملكيًا يطل على شط المتوسط مباشرة في موقع متميز بالقرب من محطة سيدي جابر. إن هذا الترف ليمنحها بعض الصفاء المساعد على التفكير والتأمل، ومحاولة استعادة ما فقدته في ظروف يعلمون، ولا تعلم عنها أي شيء.

يأتيها من الداخل صوت طرقات خفيفة على الباب، فتعتدل في جلستها وتهتف بصوت مبجوح أن ادخل. كعادتها تدخل مبتسمة وكأنها استمعت لتوها إلى خير مفرح، إن هذه الفتاة البلهاء طيبة للغاية وتسلمها. تدخل منار من باب الحجرة إلى الشرفة في خطوات واسعة تتقاذف فرحا قبل أن تأتمها جملة ليلي:

"تعالى يا منار، ادخلي."

"صباح الفل يا ست الكل! ايه القمر دا ياخواتي، والنبي تستاهلي
100 بوسة."

"يا بنتي اطلعي بقى من البكش ده، قولي لي عملي إيه في اللي
اتكلمنا عليه إمبراح؟"

تجمدت منار في جلستها، ثم تقدمت من حاجز الشرفة ببطء.. تبدو خائفة من أن تغضب ليلي، لكن هناك سببًا آخر يخيفها بذات القدر.

"على فكرة انتي شكلك عايزة تخربي بيتي يا هانم، أنا هاسمع كلامك ولو إن ممكن يتقطع عيشي فيها.. بس عشان تعرفي أنا بحبك
قد إيه!"

نهضت ليلى وانقضت عليها تحتضنها في غل، وهي تهتف بمرح
طفولي دول أن تحفل بالكتاب الذي وقع على الأرض حين قامت:

"حبيبي والنعمة، طب أروح أغير هدومي بقى."

"مش قبل ما نفطر الأول!"

"ما أنا هاعزمك على أي حاجة لما نخرج بقى، بطلي رخامة."

"ربنا يستر، اتفضلي يا مغلياني!"

كانت المرة الأولى التي تغادر فيها ليلى المستشفى وتعتبر الأسوار إلى
الحياة بالخارج، وقد استلذمت هذه المغامرة من منار بعض الخطط
الإستراتيجية الممعنة في المبالغة والمثيرة للضحك من فرط سذاجتها.
وبرغم بهجة اللحظة بالنسبة لليلى وشعورها بالإثارة، إلا إنها ظلت
تفكر في اللحظة الأولى التي استيقظت فيها ورأت العالم لأول مرة.

منتصف ليلة الحادي والثلاثين من ديسمبر، 2003.. سيدي جابر،
الإسكندرية.

الكل سعيد مبتسم في غير تكلف، والطقس يميل إلى البرودة.
أصوات الهمس والضحكات المسرورة يكاد يعبر مياه المتوسط حتى
الحدود الإيطالية.

عالم من الأضواء، تكفل بتحويل شوارع المدينة إلى قطعة من
حافة قرص الشمس. من يمكنه أن يحزن أو يكتئب في ليلة كهذه، وفي
بلد مثل هذا، وفي طقس على هذا القدر من السحر؟

في مثل هذه الأجواء، يصير للحب طعما أجمل كثيرا، مثل كأس من الحليب المخفوق، أضيفت إليها بعض الفانيليا.

مئات الشموع قد أوقدت، شبكات الهواتف معطلة بسبب مقدار الضغط المهول، ملايين الاتصالات، والرسائل القصيرة، والمتعددة الوسائط، تحمل التهاني والنكات وكلمات الحب. آلاف البشر يحتشدون على المقاهي وفي الطرقات المؤدية للمحطة، وبطول خط الكورنيش، احتفالا بميلاد سنة جديدة.

لكن واحدة بالجوار، بدت وكأنها لم تكن تتابع هذا الكرنفال الجنوني الهيج.

محطة سيدي جابر..

مستشفى د.سليم داغر..

الجناح الملكي.

فتحت عينها في هذه اللحظة فجأة وكأنها تستيقظ من نومة طالت. أجهزة غريبة تحيط بها من كل جانب، عشرات الأسلاك والأقطاب والأنابيب، تخرج وتدخل من وإلى كل أنحاء جسدها. لم تفهم أي شيء. كان الموقف مدهشًا جديدًا عليها، مريبًا إلى درجة الرعب.. جالسة في فراشها تتأمل الجدران من حولها، بنظرات غير فاهمة، حاولت أن تتذكر ما حدث، أين هي، من هي؟! كانت تشعر وكأنها قد خلقت لتوها!

أطلقت لبصرها العنان داخل المكان، لم تصدق هذه الصورة المبالغ فيها من الأناقة والترف والبذخ، الثريا المدلاة من السقف المرتفع، السجاد الفاخر الذي يكسو معظم أرضية المكان الخشبية

اللامعة.. الأثاث، المقاعد، حتى الفراش الذي ترقد عليه. هل أدخلوها
مخدع الملكة إليزابيث بطريق الخطأ؟

حاولت أن تنهض جالسة، فأصابعها دوار وصداع مباغتين، جعلها
ترتد إلى مرقدها مستسلمة. كان على جانبي الفراش كومودينو مزدوج
جميل الشكل، منمنم الزخارف، وجدت في دُرجه مرآة صغيرة ذات إطار
خشبي مذهب، ولها مقبض أنيق، تناولتها ووضعتها أمام وجهها ببطء
وتردد.. ولم تصدق ما رأت عيناها. أذهلتها حقيقة أنها على هذا القدر
من الحُسن والملائكية، كان للملامح وجهها جمالاً وبهاء أكبر مما توقعت.
وظفقت تبسم وتقطب للمرأة، حتى تتأكد من أن هذه الصورة التي
تطالعها، هي صورتها فعلاً! حركت أصابعها أمام السطح الفضي،
لمست أنفها بطرف سبابتها كأنها طفل وليد يرى المرأة للمرة الأولى في
حياته، ويبدأ في اكتشاف ذاته كخطوة أولى في رحلة اكتشاف الكون.
ولدقائق، ربما ساعات، ظلت تتأمل شعرها القصير فاحم السواد،
وشفتها الرقيقتان، أنفها الدقيق المنمنم، بشرتها الوردية مثل باطن
كف لرضيع.. وعيناها السوداوات المتسعتان دهشة. وأخيراً تركت
المرأة، وقد بدأت تستشعر في نفسها سعادة جارفة ليس لها حد، وبدا
أنها نسيت، ضمن ما نسيت، حقيقة موقفها هذا.

فتحت بقية الأدراج لكنها كانت خاوية، أَلقت نظرة من حيث ترقد
إلى النافذة العريضة، بعرض الجدار، المطلّة على الطريق.. ظلام
دامس تتخلله بعض النقاط الصفراء والبيضاء الصغيرة المتوالية إلى
ما لا نهاية.. للمرة الأولى تلاحظ أن هناك بعض الصور المؤطرة،
المعلقة على الجدار بشكل استعراضي أنيق. كانت الصورة الأولى كبيرة،
تمثل رجلاً على مشارف عقده الرابع، بدا وسيماً متأنقاً يبتسم في
هدوء. من هذا الرجل، وما الذي أتى بصورته إلى غرفتها؟ لكنها لم
تسأل كثيراً، إذ راحت تنشغل بتأمل الصورة التالية. كانت أصغر

حجمًا من سابقتهما، صورة زفاف كانت، بدا فيها ذات الرجل واقفًا يرتدي حُلَّة سهرة سوداء اللون.. وكانت هي بالذات بجانبه في ثوبها الأبيض طويل الذيل، وكان يضمها إليه في رقة، وكلاهما مبتسم. هذا زوجها إذن! استراحت لمنظر هذا الرجل، وتمنت لو كان داخله جميلًا، موحياً بالطمأنينة والثقة كخارجة، وتمنت أكثر لو كان قريبًا منها الآن، في هذا المكان الذي لا تعرفه، حتى يشرح لها كل شيء.

حركت ذراعها بطريقة عفوية، ولكن يبدو أنها دونما عمد قد فصلت أحد الأقطاب المتصلة بجسدها، وأصابها الذعر عندما بدأ الجهاز المتصل بهذا القطب في إطلاق الصفير المتقطع المرتفع الصوت. جلست منكمشة في خوف، تضم ركبتيها إلى صدرها، وترفع الملاءة إلى ما تحت ذقنها، وهي ترتجف ذعرًا. مما جعل المزيد من الأقطاب تُنزع عنها.. وتساعد الصفير والأزيز، المتقطع والمتصل، من أكثر من جهة.. وفي لحظات تحول الموقف إلى جنون تام.

لنصف دقيقة تقريبًا، استمر هذا الموقف، وهي تتلقت حولها مرعوبة دون أن ينطق لسانها بكلمة، أو تطلق حتى صرخة استغاثة. ومن الخارج تصاعدت أصوات صياح، وخطوات مسارعة تقترب. وتعلقت عيناها بالباب الكبير المغلق، الذي لم يلبث أن أنفتح فجأة، ودخل عبره ثلاثة شيوخ كلهم فوق الستين. يرتدون المعاطف البيضاء، ومن خلفهم دخلت ممرضتان صغيرتان. انطلق أحدهم يوقف الأصوات، وآخر راح يتأمل وجهها مندهشًا، وأخرى تنزع عنها كل تلك الأشياء المتصلة بها، والتف الجميع حولها في النهاية بعد أن توقف كل شيء.

"دي معجزة حقيقية"

"أخيرًا! احنا كنا قربنا نفقد الأمل"

"سبحان الله.. لكل أجل كتاب"

"حمدلله على سلامتكم يا ستّ الكل!"

"كل العلامات ممتازة.."

لم تغير وضع جلستها، ولكنها أعملت بصرها فيما بينهم. من الواضح أن الرجال الثلاثة، ذوي الشعر الأبيض - أحدهم كان أصلع نسبياً - هم أطباء مكلفون برعايتها، ويبدو أيضاً أنها نائمة منذ فترة طويلة جداً، حتى أنهم يأسوا من عودتها. كل هذا مفهوم، لكنها تساءلت في سرها لما جميعهم من الشيوخ، هل كفت كليات الطب عن تخريج دفعات جديدة؟! كان أحدهم محنيّ القامة، مرتعش الكفين، وكان الآخران يضعان عدسات زجاجية سميكة، وخطر لها أنهم هم الأولى منها بالرعاية. ووجدت الفتاتين تبتسمان لها في إشراق ومودة..

"انتي حاسة بيايه دلوقت؟"

"انتي كويسة؟ سامعانا كويس؟"

انتظرت لحظات قبل أن تهز رأسها إيجاباً. وجدت في كفها كوباً من الماء، رفعته إلى شفيتها دون أن تشرب، ودون أن تتوقف نظراتها عن التجول بين أعينهم..

"مالك يا هانم، مابتكلميش ليه؟"

وضعت كوب الماء، وحاولت التحدث، فوجدت عُسرًا في الكلام؛ كأن هناك ما يسدّ حلقها. تنحنحت وقالت مختبرة نبرات صوتها للمرة الأولى.

"أنا فين؟"

"أنتي في الجناح الملكي، في مستشفى الدكتور سليم، جوزك. نقلوكي هنا بعد الحادثة. احنا آسفين للي حصل، بس الحمد لله على أي حال.. ماحدش كان متخيل إنك هاتقومي لنا بالسلامة تاني بعد كل دا" كادت أن تتساءل عن طبيعة ذلك الحادث، وما حدث بالضبط. لكنها أعرضت، إذ كان هناك سؤال أكثر إلحاحًا من هذين..

"أنا آسفة، بس.. أنا مين؟!"

"مدام ليلى داغر، حرم السيد الدكتور سليم عبد الوهاب داغر، رجل الأعمال، والملياردير المصري المعروف. رئيس مجلس إدارة سلسلة فنادق (ليلى) على مستوى العالم. وصاحب مؤسسة داغر للتجارة والمقاولات، ورئيس مجلس إدارة مستشفيات (داغر) في مصر وأغلب العواصم الأوروبية.."

توقفت الممرضة الجالسة بجوار ليلى عن الكلام، لالتقاط أنفاسها، قبل أن تستدرك..

"أه! كنت هانسى كمان.."

استوقفتها ليلى بإشارة من يدها، وهي ترمقها مذهولة..

"على مهلك يا منار، ما تختصري وتقولي إني متجوزة عم دهب شخصيًا!"

رمقتها منار في دهشة..

"مش غريبة إنك فاكرة عم دهب، ومش فاكرة إسمك؟"

"اسمي ليلى داغر طبعًا!"

"برافووو..!!"

مالت عليها ليلى هامة في رجاء..

"ماحدث من الدكاترة اتكلم قدامك إن الذاكرة ممكن ترجع لي قريب؟"

"هو ماحصلش إن حد جاب سيرة الموضوع دا قدامي والله، بس مين عارف.. جايزرنا يفرجها قريب.. هي كانت حادثة بشعة، وماحدث فينا اتوقع إنها تمر من غير أي خسائر على أي حال"

ثم أتبعته بلهجة خاصة تحمل بعض الخطورة:

"بيني وبينك يا هانم! لو كنت مكانك، كنت حمدت ربنا ألف مرة على نعمة النسيان، مش هاتفرحي لو افكرتني.. صدقيني، دا من رحمة ربنا بيكي!"

لم يكن من المسموح لها أن تخرج قبل تمام الاطمئنان على صحتها، وبالتأكيد لم يكن ليتم هذا بغير وجود طاقم الحراسة الشخصية المكلف بمراقبتها، باعتبارها شخصية عامة، وزوجة لرجل على قدر كبير من الخطورة، لذلك نراهما مدثرتان بالمعاطف، تحسبًا لسقوط الأمطار، ومختبئات خلف النظارات الشمسية العريضة، تتمشيان في أروقة أحد المراكز التجارية الكبيرة بالمنطقة، وكل منهما تحمل بعض الحقائب الورقية الصغيرة.

كانت ليلى تشعر بالسعادة لهذه المغامرة المثيرة، لكن منار كانت في أشد حالات القلق من أن يكشف أحد شخصية ليلى، فتكون كارثة وقعت على رأسها لمخالفتها التعليمات. لذا كان الندم يأكلها، وراحت تلعن غبائها الذي ساقها إلى الموافقة على هذا الاقتراح الخطر.

"اتحركي شوية يا جبانة! خلينا نستمتع بنور الشمس"

وتوقفت أمام ثلاجة عرض صغيرة، يقف خلفها طفل باسم، يرتدى زيًا مطبوعًا عليه شعار المركز..

" شوكولاته ولا فانيليا؟"

" آيس كريم في الجو دا؟! "

" وإيه المشكلة؟ هو حد بيراقبنا؟! "

تلفتت منار حولها بفرع مفاجئ..

"مش بعيد والله.. ربنا يستر!"

أطلقت ليلى ضحكة مرحة، وقالت باستمتاع:

"ماتخافيش يا حلوة، انتي مع ليلى داغر شخصياً.. ومفيش مخلوق يقدر يقرب لك وانتي معايا!" أسرعت منار بوضع يدها فوق شفتي ليلى..

"مشش!! كأنك بتقولي لي ماسمعش يسمع! يالا بينا كفاية كدا"

تملصت منها، وركضت في الممر الطويل صائحة:

"لأ مش دلوقت، لسه عايزة اشترى حاجات!"

ثم التفتت نحوها وقالت بلهجة مغرية:

"إيه رأيك نقطع تذكرتين في حفلة ثلاثة؟!"

وضعت ليلى شوكتها في الطبق بحركة عنيفة، وقالت غاضبة:

"مش واكله! سديتي نفسي"

"انتي بتتصرفي زي العيال الصغيرين واحنا في مكان عام على

فكرة.."

"ولازمته إيه المكان العام؟ ماكنا اتغدينا في المستشفى بدل ما احنا

بتتحرك زي الهربانين كدا؟!" انتظرت منار لحظات، حتى انصرفت

النادلة التي كانت ترتب المائدة:

"أولاً، عشان جنابك اللي كنتي عايزانا نخرج. ثانياً، شكلك ناسية

المصيبة اللي ممكن ألبسها عشان سمعت كلامك.. والمصايب الكثيرة

اللي ممكن تحصل لك لو حد عرف انتي مين، يمكن يشوفك حد من

أعداء جوزك ماتعرفهوش، ويعتمد على إنك فاقدة الذاكرة.. يا ترى
هاتعملي إيه ساعتها، هه؟! "

بدت في عيني ليلي نظرة تنم عن الذعر، فأتبعته منار:
"ثالثًا.."

ونفضت من مجلسها مكلمة:

".. ممكن نقوم نرجع حالا لو عايزة!"

تشبثت ليلي بكفها صائحة:

"لا والنبي خلاص هاكل! خرينا شوية بس "

جلست منار ورمقتها بنظرة متعجبة..

"انتي مابقيتيش تحبي المستشفى؟"

"لا، بس حاسة إني محبوسة.. الزهق طلع روحي "

تبسمت منار، ويلي تواصل الكلام:

"حتى الكتب والروايات، خلصتهم كلهم في كام يوم.. إيه المانع نخرج

كل يوم ساعة واحدة نشوف فيها الشوارع والناس على الأقل؟!"

وتأملت الفراغ للحظات، حتى جذب انتباهها مشهد لطيف للغاية..

رجل بدين أشيب الشعر، يبدو في أواخر الخمسينات، لكنه يحمل وجه

طفل. انحنى على حوض لزهور (لانتانا كامارا) البرتقالية ذات القلب

الوردي، والتقط واحدة، ثم وضعها بين صفحات كتاب يحمله، قبل

أن يواصل طريقه مبتسمًا راضيًا. ابتسمت للموقف، قبل أن تسأل

منار في لهجة فضولية:

"بس انتي ماقليليش صحيح، انتي مرتبطة؟"

هزت رأسها نفيًا..

"لا!"

"ماتقوليش لأ، اسمها (لسه) عشان ربنا يفتح عليكي، ماتبقيش فخرية!"

"وهاتفرق في إيه يعني؟"

"اتفاءلي يا حبيبي، بدل ما تكلمي ستين سنة وانتي لوحدك!"

"ستين ولا ثلاثين كله زي بعضه، وبعدين أنا مش ناوية أرتبط أصلا.. (لأ) هي الصح على فكرة!"

"معاعي حق، إيه اللي يخلي بنت حلوة زيك تتجوز واحد فوق الخمسين؟"

تأملتها منار مندهشة..

"أنهي راجل دا؟!"

هزت كتفها في حيرة..

"أي راجل.. أنا من ساعة ماصحيت من الغيبوبة ماشفتش ولا شاب بين العشرين والخمسين!"

ثم أتمت بسخرية..

"هما الشباب راحوا يحاربوا الرومان ولا إيه؟!"

"هنا من فضلك.. شكرًا"

أوقف سائق الأجرة سيارته بمحاذاة الرصيف المقابل للمستشفى دون كلمة، انتظارًا لإكرامية سخية من الهوانم ذوات المعاطف

الجميلة والحقائب الفاخرة. نزلت كل من ليلي و منار تحملان الكثير
الحقائب الصغيرة، وتكفلت الأخيرة بمهمة محاسبة السائق و صرفه
مرضياً..

"كويس إننا سبنا عربيتنا هناك وجينا في تاكسي.. فكرة جامدة
جدا!"

رمقتها منار للحظات، قبل أن تقول ب لهجة باردة:
"طب كويس إنك استمتعي بالتاكسي! بس أنا عملت كدا عشان
ماحدث ياخذ باله من شعار المستشفى على العربية واحنا راجعين.."
هزت ليلي رأسها تعجباً من حرصها الزائد عن الحد، لكنها لم تشأ
أن تعلق:

"قلبي حاسس إنها مش هاتعدي على خير، ربنا يستر!"
هنا انفعلت ليلي حقاً، فلم تستطع تتمالك نفسها..
"مالك يا بنتي؟! ما احنا خلاص وصلنا أهو.. حصل إيه يعني؟"

رمقتها منار بنظرة خائفة، فتابعت ببعض الهدوء..
"أنت بتتكلمي كأننا رحنا سرقنا بنك ورجعنا! خلاص الموضوع
انتهى وماحدث عرفني، وماوقعتش منك في السكة.. إيه المشكلة بقى؟
ماتكبريش المواضيع للدرجة دي"
صمتت منار لدقيقة غير قادرة على النطق، لكنها في النهاية قالت
كلمة واحدة:

"مش هاتفهمي!"

"أحسن! مش عايزة أفهم حاجة، يالا بينا"

جلست في فراشها تستعيد بعض ما أخبروها به عنها، وتذثرت بغطاء تنناثر فوقه عشرات من الكتب التي اشترتها، واحتارت بأبها تبدأ. هي الفتاة المصرية الأم، الإيطالية الأب، كانت أسرة سعيدة ميسورة الحال، ولم تعد ليلى سماع كلمة "لا" إزاء أي من مطالبها التي لم تكن تنتهي. قضت أول خمس سنوات من عمرها، في التنقل بين (روما) و(نابولي).. مات والدها، وترك لها ثروة لا بأس بها، وكان هذا قبل أن تلتحق بالمدرسة، من ثم انتقلت مع أمها إلى الإسكندرية، مسقط رأس الأم، بغرض الإقامة المستديمة. اعتادت أن تكون قطة بابا وماما الصغيرة، وحتى بعد وفاة الأب والعودة، لم تبخل أمها عليها بالحنان والتدليل، ولم تحاول أن تعزلها عن العالم، كي تستمتع بتكوين صداقات. واشتهرت بين الفتيان بأنها الفتاة الصعبة، لكنها لم تكن تتمتع بقدر من النرجسية أو الغرور يفوق أي فتاة أخرى في مثل عمرها، بل كان الأمر كله يعتمد على أنها لم تجد الشخص المناسب بعد. وبالطبع مع حسنها المبهر، وثروة عائلتها، يصعب على أي شاب توقع أو تصديق هذا، بينما يراها ترفض هذا وتتمنع على ذلك.. ولا يسعه إلا أن يظن في داخله أن (الفتاة الصعبة) تستمتع باللعبة. حتى ظهر د.سليم في حياتها، ومنحها الفرصة الذهبية، لتجرب أن تعشق شخصاً آخر بخلاف ذاتها.

درست ليلى في معهد الموسيقى العربية. وقعت في غرام البيانو، وتمنت أن تتمكن من العزف ببراعة. كانت ترى أن عازفي البيانو ليسوا بشراً، ليسوا أقل من ملائكة تمشي على الأرض. أخبرت صديقتها هالة أن هناك دكتور يعزف البيانو ببراعة كالأبالسة، وهو مستعد لإهداء علمه لمن يطلب وبلا مقابل.

"دا عندنا في المعهد؟"

"معهد إيه يا بنتي؟ دا طبيب بشري. بس بيعشق البيانوزيك ويمكن أكثر، الفرق ما بينه وبينك إنه بيعرف يعزف.. بصراحة راجل ساحر!"
"تصحیح: مفیش حاجة اسمها (بيعرف يعزف)، اسمها موهوب!
العزف موهبة مش معرفة!"
هزت صديقتها رأسها نفيًا..

"وحياة والدك بطلي فذلکة وفتي.. هو شايف إن كل واحد فينا جواه الموهبة، المهم هو يقدر يعمل بيها إيه؟ والموهبة مالهاش أنواع، بس لها درجات. يعني عندك واحد موهوب جدا، وواحد موهوب بس.. طبعا فيه ناس ما عندهم أي موهبة خالص، دول بقى اللي تقدر تقولي عليهم (أغبيا) وانتي ضميرك مرتاح!"

"يعني إيه الموهبة مالهاش أنواع؟! أكيد في ناس موهبة في النحت وناس موهبة في الموسيقى، أو الرسم أو.. كدا يعني!"

"لأ، غلط الكلام ده! الموهبة يا بنتي طاقة صافية ونقية.. pure!
ولكل إنسان نصيب متفاوت الكم في الطاقة دي، ممكن نعتبرها زي الكهربا مثلا.. لو وصلتي الكهربا بمروحة هاتنتج لك حركة، مع الدفائة، حرارة.. ومع التلاجة، برودة، وهكذا.. وخدي بالك إن مصدر الكهربا واحد.. يعني انتي عندك الموهبة، المهم تقدري تعملي بيها إيه.. فهمتي حاجة؟!"

رفعت ليلي حاجبا، ثم مالت بعنقها قائلة بسخرية وهي تغمز..

"كهربا برضه؟"

تابعت صديقتها بحماس وكأنها لا تنتظر ردًا:

"أهي الموهبة كداهو بالظبط! لو انتي عندك الطاقة دي وبتحبي الرسم، هاتبقي رسامة شاطرة، لو كان اهتمامك النحت هاتبقي مثالة

(موهوبة).. لو عمرك مادخلتي مدارس وكنتي شغالة في تصليح الكوالين والاقفال وربنا فتح عليكي بالموهبة دي، ممكن تخترعي لنا نوع جديد من الإقفال بيتفتح أول ما يشوف صاحبه جاي من على أول الشارع! فهمتي؟! "

"وانتي بقى جبتي الفلسفة دي كلها منين؟ دا انتي بتتلخبطي في إسمك يا منيئة!"

قالت صديقتها في لهجة حاملة مثيرة للضحك:

"هو علمني بقى!"

"هو مين بسلامته؟! "

"الدكتور طبعًا!"

"هو قال كل دا؟! "

"وأكثر! لازم تقابليه بنفسك، دا كنز!"

علقت ليلي ساخرة:

"ويا ترى اسمه إيه الكنز دا؟! "

"لا! دا سر"

"بت! هاكسر دماغك، انطقي"

"اسمه دكتور هشام محمود.. بس هو مش شغال علي في موضوع

المزيكا دا"

"ليه ياختي؟ خايف من الضرايب، ولا هربان من بتوع تنفيذ

الأحكام؟! "

"لا دا ولادا، ومش هقول لك.. لما تشوفيه هاتعرفي بنفسك!"

"لما أشوف بنفسي، فهمت! يبقى وقعت على دماغه طاسة زيت مغلي وهو صغير"

"بطلي بواخة بقى، إيه قلة الأدب دي؟! أنا رايحة أشوف المحاضرة اللي ورايا، وهانتقابل هنا لما أخلص عشان نروح له سوا..o.k.؟"

"من هنا يا ليلي.. أيوة البوابة دي"

كان المكان عبارة عن حديقة كبيرة منسّقة بعناية فائقة، ولها بوابة عملاقة مفتوحة. كاد حارس الأمن على البوابة أن يعترض طريق سيارتها بينما تمر من خلالها، لولا أن رأى هالة تجلس إلى جوارها، فأشار إليهما أن تمرًا، ثم رفع جهازا لاسلكيا إلى شفتيه. بعد البوابة الكبيرة، ورجل الأمن، كان هناك ممرّ طويل من الرخام الأبيض، يقود في نهايته إلى مبنى شديد الفخامة والرقى، شاهق الارتفاع. وعلى واجهته الأمامية انطبع في إصرار شعار دائري يشبه المتاهة، أكثر من مرة وبأحجام متفاوتة. كان المشهد ذو تأثير قوي حقًا.

"تمام، هنا!"

أوقفت ليلي سيارتها حيث طلبت هالة، ثم ترجلتا معًا..

"إيه المكان دا؟ احنا هانقابل الدكتور بتاعك في قصر الرياسة؟!"

"قصر الرياسة يا جاهلة؟ دا المقر الإداري لمجموعة شركات (داغر) للمقاولات العامة.. عمرك ماسمعتي عنها؟"

تصنعت لهجة شعبية، متظاهرة بأنها تلوك قطعة لبان..

"بتاع الحديد؟! سمعت ياختي!"

"حديد؟؟ لا، بتاع الأسمنت! حديد يا أم دماغ صفيح!!.. ياللا بينا،
وإيه حركات العوالم دي؟!"

"ما علينا! والدكتور دا بيضرب لهم بيانو وهما شغالين ولا إيه
ظروفه؟"

"لأ هو موظف هنا.. شغال في وردية المسا"

"خَلّصي قهوتك بسرعة، الراجل خَلّص اجتماعه، وممكن يكون
هنا في أي لحظة"

وضعت ليلي قدحها جانبا في توتر، وبعين حذرة أخذت تتأمل
المكان. كانت حجرة متوسطة المساحة، بلا نوافذ على الإطلاق. ولها باب
كبير مؤدي إلى الحديقة، وهو الذي دخلنا منه، وباب آخر صغير لا تعلم
إلام يفضي. وكانت هناك بعض المقاعد القليلة، ومنضدة بالحجرة..
بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة لم تعرف ما هي، لأنها كانت مغطاة
بقطع من الأقمشة البالية المترية.

لم تكن الحجرة عارية من الأثاث تمامًا، إلا أن ليلي اعتبرتها كذلك.
والسبب طبعًا هو الفارق الشاسع بين هنا والخارج، من حيث النظافة
والنظام.

قطعت أفكارها صوت الخطوات الواثقة الثقيلة التي تقترب من
الباب الصغير، صوت مقبض الباب إذ يدور، وصوت الصرير الصادر
من مفصلاته.

"إزيكم يا بنات.. أنا عارف إن الزمن له قيمة طبعًا، بس بالنسبة لي
أنا، القيمة دي مالهاش أي قيمة!"

نهضت الفتاتان تستقبلان الوافد إليهما من الخارج، إحداهما
بحرارة، والأخرى بفضول واندهاش من هذه الافتتاحية الغريبة.

"عارفين ليه؟ عشان القيمة دي مهما كانت، هي في الآخر قيمة
نسبية.. آينشتاين قال كدا.. وقيمة نسبية يعني كل واحد له وجهة
نظرة! عمركم شفتوا قانون بيحاكم الناس على وجهة نظرهم؟"

كان وسيماً جذاباً كنجوم السينما، ذو ابتسامة ساحرة، وصوت
قوي دافئ، تقدم يصافحهما في ترحاب ومودة..

".. ورغم كدا ما بحبش أتأخر عن مواعيدي. أنا خلصت الاجتماع
بدري عشان ما أتأخرش عليكم.. إزيك يا هالة؟"

قالت هالة بصوت متهدج، وهي لا تصدق أنه يخاطبها باسمها..

"إزيك انت يا دكتور!"

قالت ليلى بلهجة مرحة:

"حضرتك طبعا الدكتور هشام.."

تأمل وجهها في فضول مندهش، وأطال النظر حتى أزعجها الأمر،
التفتت إلى صديقتها طالبة المساعدة، فوجدتها غارقة في عرق
الإحراج.. همست لها:

"هو فيه إيه؟!"

"هشام مين بس الله يخرب بيتك!"

قالتها هالة في غلٍ هامس.. فصاحت ليلى في حنق:

"مش انتي اللي قلتي لي اسمه هشام يا بنت ال...!"

سارعت هالة بوضع كفها فوق شفتي ليلى، قبل أن تُتم جملتها، ثم
قالت مخاطبة الرجل في حرج شديد، بينما تهمهم ليلى في غضب:

"أنا أسفة يا دكتور، سامحني.. أصل ليلي صاحبتني تعبانة وبتعالج عند اخصائي نفسية وعصبية!"

حررت ليلي نفسها من قبضة هالة. وصاحت في ثورة:

"والله العظيم هي اللي قالت إن اسمك هشام.. وأنا كنت أعرفك عشان أتخيل إسمك يعني؟!"

قال الدكتور بلهجة مرحة وهو يحاول تهدئة الموقف:

"طب اهدي.. أنا دلوقت متأكد إنك ماتعرفينيش، وعموما إسم هشام مش وحش للدرجة دي!"

ثم قال ضاحكاً في حرج:

"في الحقيقة، أنا اللي طلبت من هالة تقول أي إسم وهمي.. لو انتشر خبر إني بدي دروس خصوصية في المزيكا، ماחדش هايسيبي في حالي"

تسمّرت ليلي من الصدمة، لكنه تابع:

"بيسموها ضريبة الشهرة، بس أنا مايدفعش ضرايب. ممكن تبليغي مباحث الأموال العامة لو حبّيتي! ساعات الواحد يببقى له هوايات غريبة، ولو كنت شخص عادي ماكنش حد علّق، مش كدا؟ تخيلي لو أوناسيس كان بيحب يصلح بواير الجاز مثلاً!! تفتكري كان هاي يعرف يمارس هوايته بحرية؟ لما أوناسيس يحب يمارس هواية بريئة ومايقدرش.. أmaal مين فينا يقدر؟!"

"وحضرتك بقى أوناسيس؟!"

قال ضاحكاً:

"لأ مش للدرجة دي، أنا اسمي سليم داغر"

"عارفك! سامحني، بس والله أنا لا بتفرج على تليفزيون ولا بقرا جرايد، بس أنا عارفة اسمك كويس.. د.سليم داغر (بتاع الحديد).. انت بقي الدكتور بتاع الحديد؟!"

"تحت أمرك يا فندم!"

ظل كل منهما يتأمل عينا الآخر مبتسمًا، عاجزًا عن خلق الكلمة التالية، فتنحنت هالة في ضجر لتنهى الموقف. قال سليم:

"طب إيه، جاهزين للدرس؟"

"أنا مستعدة، أنتي مستعدة يا هالة؟"

قالت هالة في غيظ:

"خليكي في حالك!"

"شاهد يا دكتور؟!"

قال سليم في بساطة:

"خليها سليم بس، مفيش داعي للألقاب"

ثم أتبع بعدما رأى الخجل مرتسمًا على وجهها:

"قصدي إني مش عجوز قوي يعني.. دول هما كام سنة بيبي

وبينك!"

"سليم باشا! احنا مش طالعين أوضة الموسيقى ولا إيه النظام؟"

"انتي بقيتي مملة قوي يا هالة! عموما شكلنا طلعلنا فعلا"

قالت ليلى في غباء:

"طلعلنا فين؟! هي دي مش أوضة الموسيقى؟"

قبل أن تتم عبارتها، سمعت صوتًا معدنيًا يقول:

"26"

فتوجه سليم نحو الباب الكبير وفتحه على مصراعيه:

"اتفضلوا"

ولم تكد ليلى أن تقترب من الباب، حتى أطلقت صرخة قصيرة، ثم

قالت مرتجفة:

"الجنينة راحت فين؟!!"

تناول كفها وعبرها الباب، ومن خلفهما دخلت هالة..

"سبناها تحت! لو خرجنا من القايمة أنا والمهندس اللي صمم المبني

دا، مش هايكمل عدد اللي يعرفوا مكان الأوضة دي ستة سبعة

بالكتير.. هنا بيتي ومكان شغلي وكل حاجة بالنسبة لي.. بس إيه رأيك؟

ماتنكريش إنها كانت تجربة جديدة عليكي.. أول مرة تشربي القهوة في

أسانسير!"

"أسانسير؟!"

صاحت بها ليلي غير مصدقة، قبل أن تطلق ضحكتها المرححة الشهيرة، التي أردت بالكثيرين. فابتسمت منار سعيدة لضحكتها، ثم قالت:

"دي كانت أول مرة تقابلوا بعض، وبالتأكيد كان يوم ناجح، لأنكم أعلنتموا خطوبتكم بعدها بأسبوع.. الكلام دا كام من حوالي خمس سنين تقريبا"

تأملت ليلي الفراغ للحظات، قبل أن تسأل:

"وانتي ماكنتيش معنا يا منار طبعًا.."

"لأ طبعًا، كنت معاكم فين؟! انتي اللي حكيتي كل التفاصيل بقى بعد كدا"

"أنا حكيت لك التفاصيل دي كلها بالدقة دي؟!"

"لأ مش بالضبط، بس أنا قرّيت الكتاب زي ما كل الناس قرّوه!"

ثم ضربت جبينها بكفها وصاحت:

"يخرب بيت الغباوة! هو دا الحل من الأول، إزاي ماجاش في بالي!!"

"أنا مش فاهمة حاجة!"

قال منار منفعلة:

"لحظة واحدة، في حاجة مهمة معرفش إزاي غابت عن بالي.. انتي فاكرة كتاب (سنوات ساحرة)؟"

هزت رأسها نفيا..

"دا كتابك، اللي حكيتي فيه قصتك بالكامل، ومن حسن الحظ إنك أخذتي القرار دا بعد الجواز.. حظك حلويا عسولة!"

"أنا فعلا حاسة إن حظي حلو قوي! لو ماكنتش مرات الراجل دا أكيد ماكنتش كتبت مذكراتي أبداً.. هو دا الفرق ما بين الأهمية والشعور بالأهمية"

"مين اللي قال كدا؟ انتي اهميتك مش مصدرها الوحيد إن جوزك يبقى سليم داغر.. انتي كمان نجمة مجتمعات وليكي أنشطة عامة مالهاش حصر، ومشروعات خيرية في أكثر من دولة في أفريقيا وآسيا.. كل واحد في العالم عنده تليفزيون أو بيبستخدام الإنترنت، حافظ وشك وإسمك وتاريخك كله!"

"طب ما دا كله برضه عشان مرات سليم داغريا هيلة!"

قالتها ليلي في سرها، بينما أكملت منار متحمسة..

"انت تعرفي كتابك (سنوات ساحرة) دا باع كام طبعة؟ تعرفي إنه تصدّر قائمة مبيعات الكتاب في آخر سنتين في مصر والوطن العربي كله، وإنه اترجم لأربع لغات أجنبية؟"

وأتبعت ضاحكة:

"أنتي مش متخيلة عدد الدكاترة والمهندسين والمحاسبين والعمال والسواقين وغيره وغيره، شوفي كام مستشفى أو مكتب أو فندق على مستوى العالم بيملكهم الدكتور..."

ثم مالت عليها هامسة في مرج:

"لو كل واحد فيهم اشترى نسخة، دا بس ممكن يضمن لك أعلى مبيعات كمان خمس سنين قدام!"

سكنت ليلي بعض الشيء، والتجأت إلى الصمت، تفكر في كلمات منار، ممرضتها التي صارت صديقتها الوحيدة. وتقلبت في فراشها بين الكتب وهي ترمق السقف البعيد المزخرف. حانت منها التفاتة جهة الشرفة المفتوحة، لترى الكتاب وقد استقر على الأرض كما تركته قبل أن تخرج، فلم تبال به وكأنها تنظر إلى حيوان صغير دهمته سيارة، وألقته بجوار رصيف. كانت منار قد عرضت عليها أن تساعد في الانتقال للإقامة ببيتها، مادامت تشعر الآن أنها صارت أفضل، بدلاً من إقامتها بالمستشفى.. ولو تطلب الأمر، يمكن لطاقم الأطباء بأكمله أن يذهب إليها حيث هي. لكنها رفضت. قالت إن جناحها بالمستشفى سيكون أفضل من بيتها الذي لم تره. لقد اعتادت النوم على هذا الفراش، وأحبت منظر الغروب، حين يقبل عليها من الشرفة العريضة التي تطل على البحر. لقد ألفت المناظر والوجوه، ولا تحب أن تذهب إلى بيت لا تعرفه، به خدم لا تعرفهم، يقيمون معها. كما إنها كانت تخاف كثيراً أن يعرف الناس أنها قد استيقظت. فتبدأ في استقبال الهدايا وبطاقات التهنئة.. ثم الوفود الدولية التي أتت خصيصاً للاطمئنان على صحة معالها. يلي هذا الأصدقاء والأقارب والمعارف، والموظفون والجيران وأصدقاء الطفولة، وكل من يمر أمام بيتها و.....

"لأ مش هايحصل! أنا ماعرفش حد منهم.. مش هاعرف أنام دقيقة واحدة!"

"اطمني يا روجي، مش هاخلهم يخطفوكي أو يتسحبوا لك في السرير، ولا يستنوكي على ناصية الشارع بالمطاوي.. هاتفضلي هنا معايا لغاية ما يرجع الدكتور يا صغنتة!!"

ترددت ليلي قليلاً، قبل أن تسأل بصوت خافت:

"كنتي قلتي لي إن سليم في لندن وزمانه جاي.. هو هيتأخر تاني؟!"

سألت منار في اهتمام:

"وحشك؟"

"هو عيب؟!"

"لأ طبعاً مش قصدي، أنا بقول يعني، افتكرتية؟"

تسمرت ليلي لثوان. قبل أن تهز رأسها نفيًا، وهي ترمق البساط في حزن..

"لأ، بس أنا كوّنت عنه صورته كدا عايضة اتأكد منها.. وبعدين أنا مابقاليش غيره هو وماما"

ثم قالت وقد بدا أنها تذكرت شيئًا هامًا:

"هي ماما فين؟! وليه ماجتش تزورني مرة واحدة.. هي زعلانة مني في حاجة؟"

سكتت منار لحظة، قبل أن تجيب بقوة كأنها تطلق رصاصة:

"ماتت من فترة.. هو أنا ماقلتلكيش؟!"

انتابتها قشعريرة، قبل أن تقول:

"ماتت؟! لأ، ماحدث قال لي.. دا حصل من قد إيه؟"

أصاها بعض الارتباك، قبل أن تقول:

"يعني! حوالي تمان شهر أو أكثر شوية"

هزت رأسها في فهم، وقد أصاها بعض الهم..

"يعني من وأنا في الغيبوبة؟ لأ، مش بالضبط..."

ثم بدا وكأنها بدأت تفهم أكثر:

"ثمانية.. تقصدي إن الحادثة..؟!"

"بيخي وبينك يا هانم! لو كنت مكانك، كنت حمدت ربنا ألف مرة
على نعمة النسيان، مش هاتفرحي لو افتكرتي.. صدقيني، دا من رحمة
ربنا بيكي!"

"أجمل حاجة في الدنيا لما الواحد يحس إنه حر.. عارفة أنا حاسة
بإيه دلوقت؟"

"إحساس جميل ولا وحش؟"

"جميل جدا!"

"تبقي حاسة إنك حرة!!"

قالتها الأم في كسل وهي تسترخي في مقعدها مسبلة جفنها، فقطبت
ليلي بغضب مصطنع، وقالت كأنها تكلم نفسها:

"إيه الفصلان دا؟"

ثم رفعت صوتها قليلاً:

"اهو انتي كدا دايمًا يا ماما! بقى عندي خمسة وعشرين سنة، وبحضر دكتوراه، وعندي ثروة، واتجوزت أحسن راجل في الدنيا، وخَلَفْت ولدين توأم زي الورد.. وقربت أضيّع كل دا في حادثة.. وانتي لسه بتتعاملني معايا على إني طفلة"

"أنتي بالشكل دا مش هاتضيعي حياتك لوحديك.. خفي السرعة وحياتك، أنا لسه العمر قدامي وعايزة أفرح بشبابي!"

كانت تقود بنفسها علي طريق (الغردقة).. نصحتها سليم أن تأخذ اللاندروفر، وأن تصحب معها السائق وطاقم الحراسة كاملاً، لأنه لن يستطيع مرافقتها..

"دي أجازة مش رحلة شغل.. please خليني أروح بالعربية الجديدة، أنا ماسقتهاش غير مرة واحدة!"

"دي عربية خفيفة يا ليلي، وانتي سواقتك مجنونة قوي"

"عربية خفيفة يعني عربية حلوة! وبعدين الرجالة دول بيكتفوني.. وأنا مش هالبس المايوه وهما موجودين!"

"طب ما انتي مش هاتلبسيه وأنا مش موجود!"

"ماما معايا والولاد، يالا بقى ماتبقاش رخم.. دي أول اجازة أخذها من سنتين!"

"انتي بقيتي زنانة قوي، ودماغك الناشفة دي هكسرهما لك في يوم.. إيه رأيك أكسرهما لك دلوقت، ولا لما ترجعي من الرحلة..!؟"

تهللت في مرح، وقفزت لتلثم وجنته..

"لأ لما أرجع أحسن.. لما أرجع ابقى هد المعبد على دماغي لو عايز..
أي حاجة عايزها اعملها، ما عدا الطلاق طبعاً!"

في سيارتها الرياضية الصغيرة، جلست خلف عجلة القيادة في استمتاع، وبجوارها كانت تجلس أمها، تراقب الطريق تارة، وتناكفها تارة. وفي المقعد الخلفي تجاور طفلها الصغيرين، يغفو أحدهما، ويشاهد الآخر فيلما كرتونيا على شاشة صغيرة..

"ماما!"

"أيوه يا كوكي؟!"

"فيه هنا عصفورة حلوة قوي، تعالي شوفها.."

"فين دي؟.. في الفيلم؟!"

"أه.."

"لما نوصل يا حبيبي، عشان ماما سايقة دلوقت.."

"دي شكلك بالظبط!.. بس إنتي مش عندك جناحات!!!"

"إلحقي يا ماما!.. إبني إللي عنده ثلاث سنين بيعاكسني!"

"وطي صوتك يا كوكي، عشان أخوك نايم!"

"حاضر يا (تيتته).."

"يا غسل! أبني مؤذب"

"يا بختك.. أنا بنتي مش متریبة!"

"ماما!!!"

راحت السيارة تنهب الأرض في وحشية بسرعة 180 كم في الساعة، وكانت النافذة الأمامية بجوار ليلى مفتوحة، لذا كان من الغريب وسط ضوضاء المحرك، وصفير الهواء، وصياح الجدّة، وصوت الفيلم، أن يظل الطفل الآخر نائمًا! والأغرب على الرغم من كل ما سبق أن يبلغ ذلك الصوت مسامع الجميع.. صوت اصطدام معدني شديد العنف. بسرعة خارقة، التفتت ليلى إلى مرآة السيارة، لترى ذلك المشهد المروع: شاحنة هائلة الحجم، كانت تنطلق بسرعة مقاربة لسرعتها، ويبدو أن سائقها قد فقد التحكم فجأة في عجلة القيادة. من حسن الحظ أنه لم تكن هناك سيارات بينه والرصيف، لأن سيارته قد جنحت فجأة إلى جهة اليمين، فارتفعت مقدمتها إلى ما فوق الإفريز، ثم ارتطمت بأحد أعمدة الإنارة العملاقة، لتقتلعه من مكانه وتطيح به إلى عنان السماء.. قبل أن تواصل اندفاعها نحو سيارة ليلى!

كل هذا تم في ثوان قليلة، فسرت موجة من الهلع بداخل السيارة.. الصراخ والبكاء والتشبث بمساند المقاعد.. لدرجة أن كيمو قد أفاق من سباته يسأل في صوت ناعس عما يجري!

الوحيد الذي ظل على ثباته، ورباطة جأشه كان ليلى. على الرغم من الذعر الذي اجتاح كل خلية في جسدها، إلا أنها لم تسمح للهلع بأن يسيطر عليها.. بحركة غريزية أغلقت الزجاج المجاور لها، ثم قالت بهدوء:

"مفيش حاجة يا حبايبي، ماما هاتعرف تتصرف. الأحزمة مربوطة؟"

"مربوطة.."

"أنا مش عارف أربط الحزام"

"استنى أنا بعرف!"

"لأ أوعى، أنا هاعرف برضه!"

ألقت نظرة أخرى على مرآة السيارة الداخلية، وأحكمت قبضتها حول على عجلة القيادة في قوة..

"جاهزين؟"

تركت العنان للسيارة ذات ناقل الحركة الأوتوماتيكي، كي تنطلق بهم بأقصى سرعة، وهي متشبثة بعجلة القيادة، كأنها تقبض على طوق نجاة بين أنواء المحيط، وكادت أن تكسر أسنانها من قوة الضغط عليها، تضامنا من قدمها التي أوشكت على إحداث ثقب في قاع السيارة، جرأ الضغط المتواصل على دواسة الوقود.. وأخيرا رأت الشاحنة العملاقة تبتعد عنهم ببطء.. ببطء. خففت من ضغط قدمها على دواسة الوقود نسبياً، واستعدت للدوران عائدة للخلف، هرباً من طريق الشاحنة المجنونة، وهي تكتم انفعالها العاصف..

"شكلها كدا.."

قبل أن تتم عبارتها، رأت الشاحنة وقد استعادت سرعتها الرهيبة، تنطلق نحوها من جديد، وكأنما تعنيها هي بالذات! أصابها الارتباك، فجذبت ذراع الكابحة اليدوية بحركة مفاجئة، لتدور السيارة عكس اتجاه عقارب الساعة، وبزاوية 360 درجة، قبل أن تتوقف بشكل شديد العنف عند بداية نقطة الرجوع..

وأغمضت عينها، وهي تردد بصوت خافت بعض التمتيمات، دون أن تحاول إلقاء نظرة على المقعد الخلفي، حيث عاد صوت الصراخ يتصاعد أكثر..

قوووووووو!!

فتحت عينها ببطء، ولم تصدق حقيقة أن الشاحنة قد تجاوزتهم بالفعل، وأنها قد ذهبت بعيداً.

"الحمد لله.. الحمد لله!"

واستدارت إلى الخلف فوجدت الطفلين منكمشين، كالأرانب المذعورة.. أنزلت الزجاج ليتدفق الهواء الطازج إلى الداخل بنعومة، مبدداً الأدرينالين الذي أفعم السيارة..

"شفقتهم يا تيتة شاطرين إزاي؟"

قبل أن تحر أمها جواباً، سمعوا جميعاً ذلك الصوت. كان يشبه صفير الرياح، على الرغم من هدوء الجو من حولهم، ولم يدر أنهم متى سقط ذلك الشيء فوق رؤوسهم. وفي اللحظة التالية كانت السيارة والأرض التي تقف عليها، سواء بسواء.. وبجانها تقافز عمود الإضاءة العملاق، العائد من سفره الطويل بعد أن أتم مهمته الأخيرة، وتدحرج على الأرض، حتى استقر في سكون بريء على جانب الطريق!

"والدتك اتوفيت فوراً، وفيه ولد من الاتنين فضل ينزف لغاية ما مات في الآخر.. أنت الوحيدة اللي الدكاترة لاقوكي سليمة، باستثناء شوية كدمات بسيطة. بس ماجاش في بالهم إن الإغماءة اللي كنتي فيها هاتقلب ببغيبوبة تستمر 8 شهور، وتصحي منها فاقدة الذاكرة.. أنا أسفة"

سكتت ليلي ولم ترد، ودام صمتها طويلاً.. طويلاً. ولم تحاول منار مقاطعة صمتها بكلمة، أو حتى لمسة بسيطة.. فقط طفقت تراقبها في وضعها المتجمد كتمائيل الشمع.. في النهاية استدارت ليلي نحوها وقالت بلهجة محايدة:

"والولد الثاني!؟!"

تمتت منار في ارتباك:

"حصل له كسر مضاعف في رجله اليمين، وشرخ في قاع الجمجمة.. وتقريبا حصلت إصابة في الطحال.. بس الحمد لله له عايش"

"وهو فين دلوقت..؟!"

"دكتور سليم اضطر يسافر بيه لفرع المستشفى في لندن أول ما الحادثة حصلت، ومانعرفش إيه اللي حصل بعدها.. هو ادى أوامر ماحدش يحاول يتصل بيه تحت أي ظرف لغاية ما يرجع أو يتصل بنفسه، هو كان متوقّع - بعد الشر - خبر وحش بالنسبة لك، وماكنش عايز يسمعه وهو لوحده هناك في الظروف دي.. كلنا ماكناش متصورين إنك هاتقومي بالسلامة تاني بعد الفترة دي كلها، عشان كذا لما حاولنا نكسر تعليمات سيادته، ونبلغه بالمفاجأة ماقدرناش. كان عامل حسابه وقافل كل تليفوناته.. من ساعة الحادثة المهيبة دي وهو معطل كل أشغاله وارتباطاته، ومتفرغ تماما لإبنه.. بس برغم الفترة دي أنا مستبشرة.. أكيد ربنا شفا الولد أو على الأقل فيه أمل"

سكتت ليلى لدقيقة، قبل أن تهمس، بصوت ناعس:

"منار، وحياتك اظفي النور.. هانام شوية، ماتصحينيش على الغدا!"

مهما كان الطريق طويلاً، كانت ستصل..

فقط لو يكف ذلك الذئب الملعون عن إخافتها..

فقط لو يكف القمر عن احتجابه السخيف..

فقط لو تكف تلك الرياح الباردة عن مداعبة أطراف ثوبها في
خشونة..

فقط لو طال عمرها قليلاً..!!

ولكنها رغم كل ذلك تصل في النهاية..

هنا تكتشف المفاجأة الجديدة.. كان الجميع هناك!

كلهم بلا استثناء.. وهي لم تتوقع هذا ولم تحبه، لكنها تقدمت
مجبرة..

تجاهلت بركة الدم التي خاضت بقدميها الحافيتين دون أن تنتبه..

وصارت تطبع بصمتها الحمراء على الرمال كلما تقدمت أكثر..

ظلت تتقدم حتى أوشكت على الولوج في قلب النيران..

نيران هائلة تتأجج وتتطاير في ثورة، ولا تخشى الرياح..

"لقد عرفت الطريق أذن!"

تصاعد الصوت من كل اتجاه.. لكنها بشكل ما كانت تعرف من
يتكلم..

توقفت عن التقدم..

واستشعرت حرارة اللهب تلمح وجهها في جشع ووحشية، لكنها لم
تبال..

طفقت تلتفت حولها.. فرأتهم كلهم يبتسمون لها..

شعرت بالخوف لكنها حاولت ألا يبدو عليها هذا..

"مرحبًا بك بيننا للمرة الأولى.."

تسارعت شدة هبوب الرياح أكثر.. مما زاد من رعيها..

ومع الوقت صار الاحتفاظ بثوبها قائمًا عليها، عملاً بطوليا!

تلفعت بذراعيها.. وتركت الرمال تضرب وجهها وساقها بمنتهى
الحرية..

"أنت منذ هذه اللحظة لنا.. بالكامل!"

بدأت الصواعق تضرب الأرض وتنتشر في السماء، ثم نزلت الأمطار
كالسيل..

من بين كل هذا، لاحظت ذلك الظل الكبير..

الذي يهبط ببطء وهدوء..

نحوها.....

"وبعدين؟"

"ولا حاجة.. حياتي كلها بقت عبارة عن كابوس مش فاهمة منه أي حاجة!"

"هي لسه الكوايبس الغريبة دي بتيجي لك؟"

"كل ما عيني تروح في النوم، كأن ماليش ماضي غيرها!"

"طب وجوزك؟"

هزت رأسها في يأس..

"مش قادرة أقول لك، ولا كأني عايشة مع صنم.. أنا عارفة إنه بيحبني بجنون، بس مش هايفهم"

"طب انتي حاولتي توصفي له الموضوع؟"

"لا، ومش هحاول.. مش هايفهم!"

قطب الدكتور سمير درويش للحظات قبل أن يفكر.. حقاً لن تنتهي العجائب من هذه الدنيا، إلا يوم ينتهي أجلنا..!

"وانتي رايحة فين كدا؟"

"يعني! هاشتري شوية كتب، ويمكن أعدي على الكوافير.. إحنا عندنا إيه الليلة دي؟"

"الدكتور عاطف زهران، عازمنا على افتتاح المستشفى الجديد بتاعه، انتي نسيتي ولا إيه؟!"

"لأ، مانسيتش.. عمومًا لسه بدري"

"أبعث معاكي محمود السواق؟"

"انت عارف إن عربيتك الكبيرة دي بتخوفني، شبه التوابيت! ومحمود كان هايقع بينا في النيل المرة اللي فاتت، عشان مش متعود على العربيات السبور"

هز رأسه متممًا في أسف:

"وماظنّش عنده فرصة يتعود على أي حاجة بعد العمر دا كله!"

ثم التفت إليها بنظرة محبة..

"طب اوعديني تخلي بالك وانتي سايقة"

"أوعدك ماأعملش حادثة، بس ما أوعدكش إني أمنعها لو حصلت!"

ثم قالت قبل أن تصفق الباب من خلفها:

"سلام!"

جلست ليلى خلف عجلة القيادة، بعد أن أوقفت سيارتها أسفل البناية، التي تحتل إحدى شققها عيادة الدكتور سمير، طبيبها النفسي. نظرت إلى معصمها، فوجدت أن نصف ساعة لم تزل تفصلها عن موعدها معه. لم تشعر برغبة في الذهاب إلى أي مكان، وفكرت أن

تقرأ قليلاً لتزجي الوقت، إلا أنها سرعان ما تراجعت عن الفكرة،
وقررت وضع اسطوانة قديمة لفرانك سيناترا، كي يساعدها على
الاسترخاء.. وحده كان قدر أن يحلّق بها بهذا الشكل إلى السماء..

Softly..

I will Leave You Softly

For my heart won't break

If you should wake

and see me go

so, I will Leave Softly

ومع النغمات الهادئة، شرد عقلها، فراحت بلا وعي تسترجع أحداث
تلك الليلة.. يوم شعرت بالشيء الذي دفعها دفعًا إلى اقتحام مكتب
الدكتور عوض...

"مساء الخير!"

التفت نحوها كلا الرجلين المتواجدين بالحجرة، أحدهما مذهولاً
والآخر متضايقًا..

"متيأي كان في طريقة أحسن من....!"

"ليلي! لسه بتموتي في الدخول بطريقة درامية، عمرك ما هاتكبري
أبدًا!"

وانطلق نحوها سليم ليحملها ويضمها إليه بمنتهي اللهفة، وكأنه
يخشى ألا تكون حقيقية. للحظات، أصابتها صدمة جراء رد فعله

السريع، فابتعدت عن صدره، متأملة إياه في حذر. امتلأت عيناه بالدموع، وهو يقول مرتجفاً بعد أن أفلتها من بين ذراعيه..

"أبوة يا ليلي، أنا سليم جوزك، حبيبك.. انتي فاكراني، صح؟"

تحركت شفتها دون صوت، فقال بنفس اللفظة الممتزجة بالخوف..

"قولي انك افكرتيني.. وحياتك اكذبي عشاني المرة دي بس!"

فوجئت ليلي بأن حلقها صار جافاً كالخطب، وشعرت بأن لسانها مقيد في موضعه، يأبى التحرك. قالت بعسر شديد:

"أنا.. شفت لك.. صورة!"

التفت سليم متلهفاً نحو الطبيب، فهز الأخير رأسه أسفاً..

"ممكن تراجع الحالة مع دكتور صفوت، رئيس قسم المخ والأعصاب.. متيألي هو اللي ممكن يفيد سعادتك"

"أنا سمعت صوتك من بره"

استدارا نحوها في اندهاش وتساؤل صامت، فقالت متلعثمة:

"لما سمعتكم بتكلموا حسيت إني..."

لم تتم عبارتها، لأنها وجدت من يقتحم الحجرة من جانب آخر، صائخاً، وهو يحمل بين يديه بعض الأوراق:

"كله تمام يا دكتور، صورة الأشعة..."

"ششش! استنى لحظة.."

شعرت بالأرض تميد بها، وكأنها تحولت إلى عود من مكرونة المسلوقة، بينما أحاط بها الرجلان في ترقب وأمل..

"كأني عرفت إنك هنا....."

وكان آخر ما نطقت به قبل أن تغيب تمامًا عن الوعي..

"أنا مش فاكرة....."

"عم طوخي"

"أيوة يا دكتور؟"

"تقدر تزوح انت، عندك حد مستني؟"

هز التمرجي العجوز رأسه نفيًا..

"أحسن! مش فايق أشوف أي حد خالص دلوقت.. شكلي هاقرأ

شوية وأروح أنا كمان"

"أعمل لحضرتك قهوة قبل ما أمشي؟"

"لا، شكرًا.. لو احتجت هاعمل لنفسي.. اتكل انت على الله"

"ماشي يا ريس، زي ما تحب.. مع السلامة"

"سلام"

تأكد سمير من أن انصراف الرجل قبل أن يتناول هاتفه..

"مدام! أه تقدري تتفضلي تطلعي.. من الباب الثاني كالعادة.. في

انتظارك"

جلست ليلي أمامه صامته، ترمق حذاءها في توتر..

"أنا وصلت بدري عن الميعاد، بس مارضيتش أطلع قبل تكلمي.."

قال الدكتور في لهجة أقرب للتحفظ..

"متهيباً مفيش حد غيرنا يعرف إن حضرتك بتزوري العيادة"

هزت رأسها بشكل عصبي نافية..

"ولا حتى...!"

"ولا حتى! مفيش حد خالص، حتى جوزي كان..."

ثم قطعت عبارتها بلا مبرر، ومرت دقائق من الصمت، لم يحاول الدكتور سمير قطعها بأي شكل. حتى قالت هي في النهاية وقد زال بعض توترها:

"تليفونك صحاني من حطة كابوس!"

"انتي كنتي كنت نايمة؟!"

"عيني راحت في النوم ثواني.. وافتكرت يوم ما قابلت سليم أول مرة.."

"وليه الموضوع جالك على هيئة كابوس؟"

حاولت أن تصوغ جملتها بشكل أقرب لما تعني، فقالت ببطء..

"المشكلة إني مش قادرة أفكر إذا كنت أعرفه قبل كدا ولا لأ.. بس استغربت لما سمعت صوته، وعرفت إنه موجود وأنا معدية بالصدفة من قدام مكتب الدكتور دا.. عارف؟ أنا حاسة كأني شفت سليم في..."
وصممت عاجزة عن التعبير، فقال سمير في محاولة لمساعدتها على تجميع الفكرة:

"في حلم.. في كابوس مثلاً.. في صورة قديمة عندك؟!"

"لأ، في حياة تانية!!"

صمت سميّر للحظات مفكراً، قبل أن يقول في هدوء:

"قصدك إيه بالطببط، وليه استخدمتي التعبير دا بالذات؟"

تهددت في يأس..

"ماعرفش! لاقيته جاهز على لساني"

"فاكرة طيب إيه اللي حصل بعد ما فقدتي الوعي؟"

"فاكرة كل حاجة كأنها حصلت إمبراح. في الأول الدنيا لفت بيا

ووقعت، بعدين صحيت ثاني يوم في سريري.."

"وسليم كان موجود ساعتها؟"

"أيوه. قال لي إنه كان لسه راجع حالاً من لندن، وأول حد قابله

كان دكتور عوض.. أخده وراح على مكتبه عشان يطمّن على حالتي"

هز سميّر رأسه متابِعاً، فقالت بشك..

"دكتور صفوت كان موجود هو كمان، وقال إنها صدمة عادية..

وممكن تبقى مؤشر جيد على إن الذاكرة هاترجع لي قريب.. بس أنا

ماصدمتوش، كان شكله بيشتغلني!"

وصممت للحظة، قبل أن تسأله في توتر:

"ما عندكمش حاجة تتشرب هنا ولا إيه؟"

ابتسم في إحراج، ونهض قائلاً:

"عندنا كل حاجة حلوة.. أأمريني يا هانم!"

"عندكم قهوة هنا؟"

ابتسم متعجباً، قبل أن يتجه نحو خزانة صغيرة بالمكان:

"طبعاً عندنا.. بتشربها إزاي؟"

ضمت شفطها، وسحبت قدرا من الهواء بسرعة، فأصدرت صوتا مضحكا..

"كداهو!!"

ضحك كثيرًا، وفكر أنها بالفعل طفلة.. قالت مستنكرة:

"إيه الحكاية، انت هاتعملها بنفسك ولا إيه؟"

"أنا مش هاتحرك من مكاني، ماتقليش.. كل حاجة هنا في المكتب"

وخلال ثوان قليلة كان كل شيء معدًا أمامه على منضدة صغيرة..

"السكر!"

"سادة لو سمحت.."

"انتي مغمّقة الدنيا قوي، جرتي تشربها بسكر؟"

"أنا على فكرة بحب السكرزي العيال الصغيرة! بس الدكتور بتاعي

له تحكّماته بقى.. عموما أنا اتعودت عليها، ولا يهكم"

نظر إليها مشفقًا، قبل أن يبدأ في صنع القهوة لكليهما.. قال:

"ممكن تشرحي لي طبيعة الكوايبس دي بدقة أكثر؟ أنا عارف إنها

حاجة مرهقة بالنسبة لك، بس حاولي تفكرني أي تفصيلا تقدرني

عليها.. ممكن؟"

صمتت للحظات قبل أن تقول وقد تسللت أصابعها لا شعوريًا نحو

جيدها:

"أنا مش فاكرة تفاصيل بعينها.. بس كل مرة يبقى فيه دم كثير.. في

حصنة وسيوف وناس لابسين خوّد، زي فيلم (الناصر صلاح الدين)!

دايما بشوف حد عايز يئذيني أو يقتلني.. وماعرفش كل مرة إيه اللي

وداني المكان المخيف دا.."

بدت أنها على وشك البكاء، فسارع سمبر بمناولتها قده القهوة
وقال في جدية:

"أنا كمان شفت من حوالي سنة كابوس فظيع، مش عارف أنساه
لغاية دلوقت.."

التفتت نحوه بفضول، فتابع مقطباً وهو يتذوق قده في عدم
رضا:

"برضه زوّدت السكر، وبرضه هاشربها غصب عني! مش أنا اللي
عاملها؟ يبقى لازم أشربها.." توجهت نحوه بقدها في لهجة طفولية..
"تبدّل؟!"

"لأ، مابحبش اصحابي يموتوا في مكنتي وبسبب القهوة بتاعتي يا
ستي!"

"أنا ما عنديش السكر على فكرة!!"

"كداية، عشان كدا مش هبدّل معاكي.. مش بلعب مع كدّايين!"

"طب أحكي بقى..!"

"أحكي إيه؟"

"الكابوس.. الله؟!"

"أه! ماشي.. في مرة بالليل كنت معدّي من جنب قلعة دراكيولا..."

قاطعته في تدمر:

"ما انت كمان بتكذب أهو.. هاتشتغلي من أولها؟!"

"لأ، دا كان كابوس فعلاً.. وأنا ما كنتش عارف إن دراكيولا ساكن

هنا يعني"

تابعته في اهتمام، فقال بلهجة خطيرة:

"فجأة لاقيت جوليا روبرتس دخلت بعربها من أول الشارع، بتشاور لي عشان ما ادخلش.."

"لحظة! كدا وسعت قوي، دي ماكانتش في الفيلم يا دكتور!"

"بس كانت في الحلم! أجمل حاجة ممكن تحصل لنا إننا نحلم.. لو حلمنا بجوليا روبرتس هانفضل فاكرين الحلم طول عمرنا، كأنه ذكرى جميلة حقيقية، ونستمتع بيه كل ما نفتكره"

"ولو كان مع الأخ مصاص الدماء؟!"

"ساعتها بقى هانحمد ربنا إنه كان حلم، ولما صحينا كل حاجة اختفت!"

للحظات صمتت مفكرة في مغزى كلامه، قبل أن تقول في بأس:

"بس هو بيفضل بالنسبة لي حقيقة.. حتى بعد ما بصحى!"

لم يرد الدكتور، فقالت:

"أنا سمعت أن اللي فاقدين الذاكرة بيحلموا بحاجات من ماضهم، كأن العقل الباطن يحاول يتخلص من الحمل الزايد يقوم يخرج جزء منه في الأحلام.."

لم يُرد مصارحتها برأيه في هذا الكلام حتى لا تصاب بالرعب، لكنه قال:

"مش دايماً أحلامنا بيبقى لها معنى، يمكن ساعات بتبقى تنفيس عن رغبة مكبوتة، أو تفسير غامض لحاجات مش فاهميتها.. وساعات بيبقى مجرد انعكاس لطاغن مسقعة باللحمة المفرومة، أو صينية بطاطس ضربيتها على العشا!"

"عايزة افتكري أي حاجة، حاجة واحدة بس تثبت لي إني بنتمي للناس دول.. أنا حتى مش عارفة أفتكركي، مش عارفة أفتكركي أي تصرف عملته بشكل عفوي، يخليني أفتكرك حاجة قديمة، أو تخلي حد يعلق أو يستغرب"

وكعادتها، وجدت أن لسانها انحشر في حلقها من فرط الانفعال، قبل أن تنطق بصعوبة:

"انت فاهمني؟ انت مافقدتش الذاكرة قبل كدا بس أكيد فاهم قصدي.."

"أنا فاهمك كويس، بس عشان خاطري مفيش داعي للانفعال.. طب سؤال!"

"اتفضل.."

"حاولتي تقري كتابك، اللي إدهولك صاحبتك دي أو الممرضة بتاعتك؟"

"بتهزرا! طبعا قريته عشر مرات!"

"والنتيجة..؟"

"أنا قريت كتب سيرة ذاتية كتير الفترة اللي فاتت، دا ماكنش أحسن واحد فيهم من ناحية الأسلوب أو الموضوعات أو الدقة اللغوية.. بس كان شكله رائع من حيث الخامات وشكل الطباعة. ابقى فكركي أجيب لك نسخة المرة الجاية!"

واستنشقت نفسًا عميقًا، قبل أن تكمل بصبر نافذ:

"دي مش أنا، وحتى لو كانت أنا، فأنا مش فاكرة أي حاجة عنها ولا عايزة أكون مطرحها.. أنا حتى لا زعلت ولا انفعلت لما عرفت إن الولد الثاني مات في لندن!"

صمت سمير للحظات، وقد أصابه شعور بالألم، تغلب عليه سريعاً..

"بس هي ست حلوة، وناجحة، وعندها فلوس كتير.. كمان متجوزة راجل عظيم بيحبها وبتحبه.. إيه المانع؟!"

"انت تقبل تعيش حياة أليس بريسلي، وتبقى غني وناجح زيه كدا، وطول الوقت البنات محاوطينك.. وفي الآخر تكتئب وتنتحرو وتسيب كل دا وتمشي؟!"

"مش بالضرورة، بس أكيد هاقبل لو كنت أليس بريسلي فعلاً.. ماأظنش إني هرفض أعيش حياتي الحقيقية.. ولو كان في إيدي أختار ماكنتش رفضت حياة سمير درويش"

"دي بقى مالهاش مقياس ثابت، مالهاش نقطة ارتكاز!"

"يعني إيه، مش فاهم؟"

"يعني إيه اللي يثبت لي إني فعلاً ليلي داغر، مش واحدة تانية..؟!"

توقفت ليلي عند تلك المكتبة في طريقها، لتشتري بعض الكتب قبل عودتها إلى المنزل. كانت تشعر بالتوتر لموعد الليلة، فهي المرة الأولى لها منذ أفاقت من الغيبوبة. حفلات رسمية، وملابس رسمية، وابتسامات رسمية.. ربنا يستر!

وبالتأكيد سوف يكون من ضمن الحاضرين العشرات ممن يعرفونها بشكل شخصي، وربما كانوا من أصدقائها المقربين.. لكنها لن تتذكر أحدًا منهم، وسيكون الموقف محرّجًا للغاية. هي متأكدة من ذلك، ولو كان لديها ذرة واحدة من الشك في احتمالية حدوث العكس، لتحمّست لتلك الدعوة. لكنها على أي حال لا تخشى الموقف بهذا القدر طالما أن سليم سيكون بجوارها.. لن تنسى أن تؤكد عليه ألا يتركها وسط الحفل، ويذهب للوقوف مع أي شخص، سواء تركها وحيدة أو مع آخرين.

وكانت متأكدة من أن زوجها سوف يحرص على هذا، حتى لو نسيته أن تطلب منه. واعترفت لنفسها أنها بالفعل تحب هذا الرجل الذي عرفتته منذ أسابيع قليلة، ليس لأنه الوحيد بالنسبة لها، وكل من بقي، ولكنها ربما كانت ستحبه حتى لو كان بعيدًا عنها. كانت تعتقد أنها لن تجد رجلاً يحبها بهذا القدر، ولن تجد رجلاً في مثل حنانه وطيبة قلبه.. كان في نظرها عظيمًا للغاية، وهو الشيء الوحيد الذي اتفق عليه عقلها وقلبها مع كل ما قرأته في كتابها.

(سنوات ساحرة)..!

يا له من عنوان سخيف، بالتأكيد سوف تشعر بالعار لو كانت قد اختارت لكتابها هذا العنوان بنفسها!

كانت تشعر بالضيق لأنها أصبحت تجد عسرًا في توصيل شعورها الحقيقي إليه، ربما كان يعتقد أن فتورها تجاهه هو نتيجة غياب الحب، مهما كان عالمًا بما يعترتها من قلق بسبب حالتها، فهو لن يرتاح بالتأكيد لهذا الجفاء. لكنها بالفعل كانت تشعر بأن هذه المشكلة قد أكلت عقلها بالكامل ولم تترك منه ولو بضع فتات لزوجها أو حتى لبقية ذاتها. فقدت رغبتها في شراء أي شيء، لكنها دخلت المكتبة لتنتقي

بعض الأشياء بشكل عشوائي، فقط لأنها كرهت أن تعود إلى بيتها خالية الوفاض.

مرت عبر البوابة الزجاجية الأنيقة، ودخلت إلى المكان المكيف الهواء، المضاء بأسلوب احترافي. كان التوتر يأكلها، إلا أنها تمالك نفسها، وقد قررت الصبر والانتظار حتى موعد جلستها القادمة مع الدكتور سمير.. لقد قال لها إن مفاجأة سارة سوف تكون في انتظارها المرة القادمة، لكنه لم يرد التصريح بنوع هذه المفاجأة، رغم ضغطها وإلحاحها.. وقال:

"لو قلت لك دلوقت، حماسك هايتبخر بعد ساعة واحدة، ولو كانت المفاجأة كبيرة هاتفضل معاكي يومين بالكثير. بعدها الموضوع هايبقى عادي بالنسبة لك، ويمكن يبقى ممل كمان!"

لم تسمع من قبل عن حلاق، فضلاً عن طبيب نفسي، يهب أسرار مهنته للعملاء. لقد كان واثقاً من نفسه لأقصى حد. والحق يقال إنه كان فعلاً على قدر ثقته بذاته وأكثر.. ويكفي أن هذه الثقة هي ما جعلها تطمئن إليه، وتبوح له بما لا ينبغي أن يقال. وحمدت الله على أنه حتى هذه اللحظة لا يوقف في طريقها إلا أولاد الحلال، فهي ليست بحاجة إلى مزيد من المعاناة.

ظلت تنتقل بين الأرفف تبحث عن أي شيء يصلح.. قبل أن تتجه نحو آلة المحاسبة، محملة ببعض الكتب، حيث جلست فتاة ضئيلة الحجم تنقر مفاتيح الحاسوب، وتمرر ماسحاً ضوئياً من الطراز اليدوي فوق بعض الكتب الجديدة.

"من فضلك؟!"

رمتها الفتاة للحظات، قبل أن تتكلم بلهجة رسمية، وقد رسمت على شفيتها ابتسامة جذابة..

"أهلا وسهلا يافندم نورتيينا.. حضرتك بتزوري المكتبة على طول..
مش كدا؟"

تماسكت ليلى، وكذبت بصلاصة دون أن تنجح في مبادلتها الابتسام:

"أيوة فعلا.. أنا ساكنة قريب وعلى طول هنا عندكم!"

"تحت أمرك في أي وقت.. عندنا أوبشن توصيل الكتب لحد البيت،
حضرتك ممكن تقري الفلاير دا، هاتلاقي فيه كل التفاصيل وتليفونات
المكتبة والإيميلات.."

"أه! ميريبي قوي"

تأملتها الفتاة بنظراتها المتفحصة للحظات مرت كالدهر، قبل أن
تقرر الإفراج عنها أخيراً..

"العفو يافندم، نورتيينا.. تسمحي؟"

ناولتها ليلى ما تحمل من كتب، فأخذتهم الفتاة لتضعهم أمامها،
وعاودت النقر والتحديد لثوان، قبل أن تمد يدها إلى طابعة على
مكتبها وتتناول منها ورقة..

"الحساب 434.."

تناولت بعض الأوراق المالية من ليلى، ثم أعادت لها بعض الفكة
فوق الفاتورة، وهي تردد جملتها المحفوظة بنفس الطريقة
البلاستيكية..

"اتفضلي الباقي! زيارتك شرف لنا دايمًا.. يا ريت تنورينا كثير"

قالت ليلى بصعوبة بسبب جفاف حلقها:

"أشكرك، تسمحي ال...؟!"

"أه طبعًا، أسفة!"

ومن خلف الطاولة أخرجت الفتاة الكتب، وقد وضعتهم في حقيبة بلاستيكية أنيقة تحمل شعار المكتبة الشهيرة، ومعها بعض المنشورات الدعائية، وقد رسمت على شفتيها الكولاچينيتين بسمه آلية، جعلت ليلى تبادر بالفرار. خرجت مسرعة، وهي تواصل أفكارها بخصوص حالتها.. وتبسّمت في سرها عندما شعرت أن الغد ولا بد حاملاً لها الأفضل. وانطلقت نحو بيتها وهي تضع اسطوانة لفيروز.. غالباً كانت تتوقع أن تتعرفها الفتاة، فكان لخروجها سالمة من المكتبة، دون أن تلتف حولها الجموع وكأنها لص تم الإيقاع به في طابور جمعية، وقعاً جميلاً أثلج صدرها ومنحها بعض الاسترخاء والهدوء. لا تدري لماذا لا تستشعر نفس البهجة، لو استمعت لذات الأغنيات على تلك الاسطوانة بترتيب مخالف لما هي عليه.. وكأن السر في هذه النسخة بالذات؟

في سيارتها، وجدت من ضمن ما اشترته من كتب بعض الروايات المترجمة للأمريكيين ستيفن كينج وجون جريشام، انكسار الروح لمحمد المنسي قنديل، وكتاب عن البيانو. لم تشعر بأنها تحب البيانو، هي تحب الاستماع إلى المقطوعات العالمية، وتستمتع بها، لكنها لم تجد بداخلها ميلاً لتجربة العزف. قررت أن تعرف أكثر عن هذه الآلة، لتكتشف إن كانت سوف تتذكر أم لا.

ولكن كان بين الكتب واحداً فرحت به أكثر مما سواه، واندهشت كثيراً من كونها اشترته دون أن تدري، بينما هي في أشد الحاجة إليه حقاً. وعندما قادت نحو بيتها كانت أفضل كثيراً.. وقد تخللها شعور قوی بأن كل شيء صار على ما يرام، أو على الأقل أو شك على ذلك.. وكانت فيروز لا تنفك تغنى..

"ليالي الشمال الحزينة.."

ضلي اذكريني.. اذكريني..."

"إيه الأخبار؟"

"تمام يا فندم، هي دلوقت مروحة على البيت.."

"برضه ماחדش عرف كانت فين؟"

"نفس اللي بيحصل كل مرة سعادتك.. العربية اختفت في نفس النقطة والناس ماقدروش يلاقوها.. بس رصدناها بعد حوالي ساعتين تقريبًا في نفس النقطة اللي اختفت فيها.. وتأكدنا إنها اخدت الكتاب معاليك"

"طب ماشي.. سلام انت دلوقت"

الفصل الثَّانِي

الْبَحْثُ

1

مساء رائق، برغم برودة الطقس النسبية. خيم على شوارع الإسكندرية المغسولة وكأنها جديدة، المضاءة وكأنها قاعة زفاف. وانطلقت السيارة في ببطء متعمد، تاركة الفرصة لراكبيها بالاستمتاع بلحظات انتصاف الليل، حيث الضغط المروري الأقل كثيراً من المعتاد، يمنح المتنزهين شعوراً بامتلاك الحياة. تصاعدت نغمات الماندولين، يعترها تشويش إذاعي محبب، ويصاحبها الصوت العذب للرائعة دوريس داي، من مذياع السيارة.

"When I was just a little girl..

I asked my mother, what will I be?

Will I be pretty?

Will I be reach?

Here is what her say to me:

"Que Sera Sera..."

ألصقت ليلي رأسها بزجاج النافذة المجاورة، وأسبلت جفنيها، في إشارة صامتة لعزوفها عن تبادل أي حديث. كانت تفكر وقد تملكها مزيج من الغيظ والقلق.. ما معنى هذا الذي رأيته، ومن تكون هذه المرأة الشريرة المدعوة لورا، وماذا تريد منها؟

كانت القاعة مكتظة بالبشر إلى حد غير محتمل! كان هذا أول ما جال بخاطر ليلى أثناء مرورها من خلال بوابة قاعة المؤتمرات الكبرى بمستشفى د.عاطف زهران الجديدة. ترتدي ثوباً أنيقاً من الحرير الأسود المحلى من حيث الكتفين بالدانتيل من نفس اللون، وقد صقفت شعرها القصير بشكل ارتجالي، منحها المزيد من الحسن فوق حسنها، وبجوارها كان زوجها الدكتور سليم في حلة أنيقة، يحيط خصرها بذراعه في رقة، وكأنه يوجه إليها دعوة صامتة لعدم الخوف أو التراجع.

مرت ببعض الواقفين في تجمعات صغيرة يحتسون المشروبات، ورمقتهم بفضول، حينما التفت لها ولزوجها البعض محيياً بابتسامة مع هزة رأس.

حمداً لله.. لو لم يزد الأمر عن هذا، لكانت هذه الحياة هي الجنة عينها! هكذا كانت تفكر، حين صكت أذنها تلك الضحكة الصاخبة الحادة..

"دكتور سليم، ليلى هانم.. يا أهلاً وسهلاً، يا 300 مرحباً!"

التفتت نحو مصدر الضحكة والعبارة، فألفت امرأة بدينة على شيء من السماجة. برغم ثوبها الذي يبدو باهظاً، إلا أنها منحت ليلى انطباعاً عاماً بأنها تنتمي أصلاً إلى طبقة اجتماعية أقل من تلك التي أدخلت إليها عنوة. أكد هذا الانطباع مزيج الألوان المنفر الذي تناثر على صفحة وجهها بشكل فج، متفاعلاً مع ابتسامتها الذئبية التي التهمت ثلاثة أرباع وجهها، بينما هي مقبلة عليهما في افتراس ودود. ابتسم سليم وصافح المرأة في أناقة..

"مدام نوران، إزيك إيه الأخبار؟ ألف مبروك المستشفى الجديد"

ثم تلفت حوله في مرح..

"أمال فين العريس؟"

"جاي حالاً، جاله تليفون مهم يا سيدي.. بس ماتقولش قدامه عريس أحسن دا ما هايصدق!"

وأطلقت ضحكها مجدداً، قبل أن توجه الحديث إلى ليلي هذه المرة:

"إزيك يا غالية، وحشيني.. حمدلله على سلامتكم، ربنا يجعلها آخر الأحزان"

وحاولت أن تقترب منها لتلثم وجنتها، وقد تغيرَ تعبير وجهها إلى نموذج صارخ لادعاء الحزن. كانت ليلي شاردة الذهن تمامًا لدرجة أنها لم تنتبه لكلمة واحدة من حديث المرأة، وإذ شعرت باقتراب هجومها المباغت، تراجعت بحركة حادة لكي لا تسمح لها بما تنتويه. ثم قالت دون أن يفارقها شرودها الغريب.

"الحمد لله.. ميرسي، ربنا يخليكي!"

أطلقت المرأة قذافها البصرية المتسائلة نحو سليم بصورة مزعجة، مما جعله يقول مرتبكاً وقد شعر بالتوتر..

"معلش، انتي عارفة اللي شافته ليلي ماكنش قليل، أكيد انتي مقدره.. نحمد الله على أي حال!"

"ولا يهكم يا غالي.. ربنا يصبركم"

وقادتهما عبر تكتلات البشر اللا متناهية إلى منتصف القاعة، حيث البوفيه، ثم وضعت في كف كل منهما كأساً من العصير..

"عن إذنكم لحظات بس.. اعتبروا نفسكم في البيت"

وفارقتهما مبتسمة إلى بعض الوافدين الجدد. مال سليم على أذن زوجته هامسًا:

"مالك يا روجي، انتي كويسة؟ تحي نمشي ولا لما نسلّم على دكتور زهران الأول؟"

منحته ابتسامة مهزوزة وهي تتأمل كل شيء من حولها في توتر..

"لأ أنا هابقي كويسة، ماتقلقش.. خلينا شوية"

تأملها قلقًا للحظة إضافية قبل أن يزفر في توتر. هنا لاحظا معًا أن صوت الهمهمات المختلطة من حولهما قد تصاعد أكثر. فالتفتا إلى مدخل القاعة الآخر ليجدا صاحب الحفل وقد تقدم إلى منتصف القاعة في خطوات سريعة ووجهه مبتسم.. وقد أضافت حلتة البيضاء مزيدًا من الحجم الوهمي إلى كرشه الضخم في الأصل، ليبدو وكأنه خارجًا لتوه من فيلم كارتون قديم!

كان هذا ما فكرت فيه ليلي، لذا لم تستطع كبح ضحكها الصافية المرتفعة كطفلة هانئة، مما جعل د.زهران يلتفت إليها وزوجها باسمًا في مرح..

"أهلا وسهلا يا جماعة!"

كان الرجل في بداية الستينات. شعره الخفيف الأبيض ووجهه الممتلئ الباسم، كانا موحيان بالطمأنينة بالنسبة لها، مما جعلها تبسّم في صفاء، وتصافحه بلا تكلف..

"ألف مبروك يا فندم"

أطلق الدكتور زهران ضحكة صاحبة أعلى من ضحكة زوجته، وقال هازًا رأسه في استمتاع..

"طالعة من بفق زي السكر.. بس لو قلتي لي (يا عمو) زي ما انتي
معوداني هاتبقى أحلى"

وزادت ابتسامته وهو يصافح سليم بحرارة..

"إيه يا بني، مالك هفتان كدا ليه.. ماكنوش بيأكلوك في لندن؟"

تمتم سليم بعبارة ما مجيبًا أستاذه، بينما تدخلت ليلى في الحوار،
قائلة بلا تحفظ:

"هو سليم كان تخين قبل ما يسافر ولا إيه يا دكتور؟!"

ابتسم زهران وقال ببساطة..

"لأ، مش لدرجة التخن.. ماتقلقيش. أكيد ماكنش زيي يعني على
الأقل!"

وربت على كتف سليم قبل أن يفارقهما بابتسامة صامتة..

ظل سليم صامتًا لدقيقة أو أكثر، حتى أن ليلى التفتت نحوه
هامسة:

"انت زعلت مني عشان اتكلمت مع دكتور زهران؟"

بدت شديدة البراءة، حتى أنه مال على وجنتها وأسكنها قبلة دافئة،
قبل أن يقول مبتسمًا:

"أبدًا يا روجي، دكتور زهران دا مربيني، وانتي فعلا كنتي بتقولي له
يا عمو.. بالعكس، أنا حسيت إنك بدأتي تاخدي على الجو هنا"

قالت باسمه في وداعة..

"عشان مش عايز تروّح؟"

"لأ عشان بفرح لما أشوفك فرحانة يا مولاتي!"

وكاد أن يميل على وجنتها ليلثمها مجددًا، لولا أن ابتعدت خطوة، وهي تهمس بأنهما ليسا في البيت. فتراجع وقد اكتست ملامحه بتعبير مضحك، مما جعل ابتسامتها المرحة تتسع أكثر وأكثر.

قادها من كفها إلى مقعدين في أحد الصفوف الأمامية، بينما صعد دكتور زهران إلى المنصة، وبجواره جلست بعض الوجوه الشهيرة.. لن تندersh لو علمت أن وزير الصحة أحدهم.

بدأ أنها قد بدأت في التفاعل مع الجو من حولها بشكل رائع، وأن مشكلتها الأساسية قد تراجعت إلى مؤخرة وعمها، وقد جعل هذا سليم يشعر بارتياح كبير، وبأن الأمور قد بدأت تشق طريقها ببطء نحو التحسن. وبدأ يستشعر أملاً كبيراً في قرب انتهاء أزمة زوجته إلى الأبد، مما جعله أكثر مرحًا، لا تفارق البسمة شفثيه، ولا ينفك يحيي هذا أو يداعب تلك بأسلوب مرح يفتقر إلى الشكل الرسمي الذي اعتاد مخاطبة الناس به، ولو كانوا من أقربهم إليه.. حتى أنه أحاط كتفي زوجته بذراعه، ولثم وجنتها أكثر من مرة، كمراهق يصطحب فتاته إلى السينما!

في هذه الليلة تناولت ليلى من المياه ما يفوق معدل استهلاكها الطبيعي خلال ثلاثة أيام تقريبًا! والسبب طبعًا هو جفاف حلقها من كثرة الضحك والكلام.

وحين ألقى سليم نظرة إلى معصمه، فوجد أن الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل، تبادل مع زوجته نظرة صامته فوافقتة متحمسة بنظرة مماثلة، وقد بدأ في الاستعداد للرحيل. بحث ببصره عن مضيفه أو زوجته ليلقى التحية ويكرر التهنئة قبل الرحيل، حين اخترق مسامعه دوى صاحب لإحدى الحاضرات، وقد اكتشفت أن ليلى ضمن الحضور في هذه اللحظة فقط..

"I Can't Believe it..!"

تقريباً التفت كل من بالقاعة نحو مصدر الصيحة في فضول ودهشة، لدرجة أن سليم قد تراجع عما كان يبحث عنه، وتقدم في خطوات سريعة ليحول بين زوجته والمرأة صاحبة الهجوم المفاجئ، وكأنه يخشى أن تأكل منها قطعة. قال في خشونة راسماً على وجهه معالم الصرامة..

"لورا؟ إيه اللي جابك.. ما اعتقدش إن دكتور زهران بعث لك دعوة!"

قالت البيضاء القوقازية، ذات الثوب الأحمر المكشوف، بيسمة صفراء عارية من الود:

"خوسارة فعلاً دكتور "داجر".. (تهيل) نسي بيعت لي؟!"
"داغر.."

"دا.. "داجر"!!.. ماقدرتش أفوت مناسبة كيبيرة زي دي!"
"فرصة لإيه بالظبط؟!"

قالت بنفس البسمة السمجة، بينما تنقل بصرها ببطء نحو ليلي الواقفة ترتجف ولا تدرى سبب توترها على هذا النحو..

"خليني أسلم على الست الأول.. أنا موش قليل الذوق!"

وتقدمت تصافح ليلي وهي تتأملها على نحو مستفز، مما جعل الأخيرة تسحب يدها بسرعة وهي تسأل في انفعال..

"انتي مين؟!"

أطلقت المرأة ضحكة عالية أقرب للسخرية، وهي تعاود توجيه حديثها إلى سليم..

"يبدو أن أعصاب زوجتك في حالة يرثى لها يا دوك.. فهي لا تعرفني!!"

تقدم سليم ليحيط كتفي زوجته بذراعه في حركة عفوية. وهو يحدث لورا ببرود..

"العربي مش لايق عليك خالص.. فكرتيني بأفلام نادية الجندي!"
رفعت ليلي بصرها نحوه في قلق وعدم فهم، فأسكتها بنظرة سريعة وهو ينصت للورا إذ قالت لسليم، بينما نظراتها مسلطة في إزعاج على ملامح زوجته:

"عايز أتكلم معاك.. دلوقت!"

لاحظت ليلي أن زوجها قد تبدل تمامًا، فلم يعد ذلك الرجل الطيب المسالم الذي عرفته خلال الأسابيع القليلة الماضية. بل إن نظرة واحدة منها لمامحه، كادت أن تتسبب في توقف قلبها من شدة الذعر!

"سليم!.. مين الست دي؟"

صمت لحظة، قبل أن يقول وقد حسم قراره..

"لحظة واحدة يا حبيبتي.. راجع لك حالاً!"

وتقدم في سرعة وهو يسحب من خلفه لورا من معصمها بشكل ألمها فتأوهت متذمرة. قال من بين أسنانه..

"قدامي!!"

وعلى مسافة، شاهدتهما ليلي يتخاطبان في ببرود تارة، وفي انفعال تارة أخرى. دام حديثهما لدقيقتين تقريبًا، قبل أن يتوجها إلها من جديد وقد بدأت تسمع بعض أطراف ختام الحديث..

"يعني لسه قدامك فرصة زي ما بتقول.. لاحظ انها تاني مرة، ودا
موش كويس!"

"قلت لك إني محتاج شوية وقت، وأنا بنفسي هجيب لك كل الورق
لحد عندك.. وبعدين انتي إزاي تدخلني نفسك في مشاكل بالشكل دا!..
أنا عارف مسؤولياتي كويس، بلاش تنطلي لي في كل مكان بقى واكبري
شوية"

"We will not.....!"

"شششش!.. خلاص بقى، نكمل كلامنا بعدين!"

وتركها متقدمًا نحو زوجته يخاطبها بلطف وهدوء..

"يالآ بينا يا لولا، نبقي نكلم زهران بكرة نعتذرله.. يالآ!"

تقدمت معه في خطوات متباطئة، وهي تلتفت لترمق لورا الواثقة
البسمة، بنظرات خائفة..

"سليم.. مين الست دي؟ مالها بيا، وتعرفني مين؟"

"هقول لك لما نمشي.. بصي قدامك وانتي خارجة، ماتعبرهاش!"

"مش ناوي تقول لي مين القرشانة دي؟!"

همست بها ليلي، مغمضة العينين، فاستدار نحوها سليم ببسمة
مندهشة..

"هي فعلا كانت قرشانة؟ تصدقي ماخدتش بالي!"

استسلمت لبرودة زجاج نافذة السيارة على وجنتها، فلم تحرك
رأسها. فقط فتحت عينها قائلة في لهجة أشبه بالصرامة:

"إخلص!"

"أبدًا يا ستي.. دي مندوبة شركة أدوية عملاقة، اتعاملنا معاها
كثير قبل كدا، وكان عندنا لها أوراق مهمة، بتاعة تركيبة دوا جديد
اتفقنا عليها.."

"دوا جديد؟!.. وأنا إيه علاقتي بالموضوع دا؟"

زفر في ضيق قبل أن يكمل..

"المشكلة إني نسيت السيدهاية اللي فيها الملف دا في عربيتك،
دورت عليها كثير ومالقيتهاش.. ويوم مالقيتها، كان هو يوم...."

"الحادثة..؟!"

هز رأسه صامتًا..

"مش دي المشكلة، لأن فيه نسخة احتياطية من الاسطوانة دي..
المشكلة الحقيقية إن اللي كان محتفظ بالنسخة دي هو انتي!"

رمقته ليلي مصدومة، فأتبع مبتسمًا..

"لأ، مش عايزك تتضايقي خالص.. يستنوا لما تفتكري على مهلك أو
يروحووا في 60 داهية، مش فارقة معايا"

"إزاي بقى؟ الست دي شكلها مؤذي، وواضح إن الموضوع مهم
بالنسبة لها.. تفتكر ممكن ترجع عن اللي في دماغها لو ما أخذتش
الورق دا؟"

رمق في اهتمام اتساع عينها، وكأنه يراقب طفلة صغيرة..

"وانتي متخيلة إيه اللي ممكن يكون في دماغها؟"

قالت شاردة الذهن:

"معرفش! ممكن تخطفني مثلاً، أو تبعت حد يئذينا!"

انطلق يضحك مستمتعاً، فضربته في كتفه مغتاظة. قال:

"لأ طبعاً، الأمور مابتمشيش بالشكل دا، الحاجات دي في السينما بس يا روجي! عموماً لسه قدامنا شهر على المهلة، كمان الشرط الجزائي للعملية كلها مايعديش الخمستاشر مليون.. ودا أسوأ احتمال ممكن يحصل!"

قالت مشدوهة..

"15 مليون؟؟؟"

"ماعنديش أي مشكلة في دفع المبلغ لو كان دا الحل الأخير، وماتنسيش إن جوزك من أغنى عشر أشخاص على مستوى العالم.. يعني بعد ما ندفعه هايتبقى معانا شوية فلوس حلوين برضه!"

"وتعزمي على السينما؟"

"أه، وأغير لك الأنتريه كمان!"

رمقته للحظات، ثم أطلقت ضحكتها الصافية، بينما تسند رأسها على صدره في استكانة. وأسبلت جفניה في اطمئنان، وقد ألغت من تفكيرها وجود مشكلة من الأساس. وبينما كانت هي على وشك النوم تقرباً، وكان الأسطى محمود يقود بنفس الثبات، وكانت دوريس داي تردد بلا كلل أن أيًا كان ما سوف يحدث، سوف يحدث! كان سليم يفكر أن الأمر قد جاوز كل الحدود وطال أكثر مما ينبغي. ودون أن تلاحظ ليلى، التفت نحوها ليرمقها، وقد اعتلى وجهه تعبير يمتزج فيه التوتر الجم، بالغضب، بالقلق.. وبدا كمن انتوى أمراً..

في الليلة التالية كانت ليلي في فراشها، تتقلب بين مجموعتها الجديدة من الكتب، وقد احتارت بأهم تبدأ القراءة. كانت قد تناولت عشائها وحيدة، فقد هاتفها زوجها وقال إنه سوف يتأخر قليلاً.. ربما يعود في صباح الغد. يبدو أنه أمر معتاد لظروف عمله كطبيب، فضلاً عن مسؤوليته عن إدارة مجموعة شركاته، وكل تلك الأشياء التي لم تتمكن من استيعابها ولم تحاول أساساً.. فالهمم أنه موجود، وأنه لها وحدها، وأن لديهم ما يقمهم شر الحاجة.

لم تكن تهتم بما هو أكثر، لذا فقد شعرت بالإحباط لأنها سوف تضطر لقضاء ليلتها وحيدة. فكرت في الاتصال بمنار لتأتي، فتضي الليلة معها لمجرد ألا تبقى وحيدة، لأنها تعلم جيداً أنها لن تنام. إلا أنها أحجمت عن الفكرة عندما لاحظت أن الوقت قد جاوز منتصف الليل.. فقررت أن تقضى الوقت في القراءة حتى يغلبها النعاس.

من بين الكتب اختارت واحداً في النهاية. كان ذلك الكتاب الذي لم تختره، وإنما اختارها.. الكتاب الذي فوجئت به بين كتبها عندما خرجت من المكتبة!

فكرت في العودة إلى المكتبة وإعادته للفتاة، لكنها رأت أنه قد تم حساب ثمنه في الفاتورة ضمن ما نقدتها من مال، كما أن عنوان الكتاب قد جذبها بشدة فقررت أنه لها مهما كان..

(جمعية الباحثين عن شيء ما!!)

لم يكن الكتاب رواية أو أي نص أدبي عموماً.. المدهش أنه كان أقرب إلى كتيّب دعائي، يتحدث عن نادٍ لفاقدي الذاكرة! ربما كان أمراً غريباً أن يقدم إنسان عاقل على تجربة إنشاء كيان كهذا، فهو يشبه وضع مجموعة من العميان في غرفة مظلمة معاً. لكنها أحببت أن تقرأ تجارب بعض المنضمين للجمعية، وكيفية مساعدة بعضهم البعض في

محاولة الوصول إلى أطراف الخيوط المفقودة، وكان هذا كله يتم تحت إشراف نظام طبي يبدو محكمًا، يجمع بين علم النفس، وطب المخ والأعصاب. ربما كان الأمر يداخله بعض التجارب الغامضة، لم يوضح طبيعتها الكتاب بشكل كاف.. لكن هذا كان مما يزيد الأمر إمتاعًا وتشويقًا، ولا ينقص من قيمته شيئًا بالنسبة لها.

أثارت الفكرة، العديد من الأفكار الأخرى العجيبة في أعماقها، وأطلقت في عروقهها فيضًا من الحماس اللا محدود، ففكرت أن تتصل بالدكتور سمير لاستشارته في أمر هذه الجمعية، لكنها تذكرت للمرة الثانية أن الوقت لا يسمح، فقررت الانتظار إلى الغد حيث موعد جلستها معه.

وكان آخر ما تذكرته في الصباح عن هذه الليلة، أنها كانت تقلب في صفحات الكتاب، وتقرأ عناوين الفصول.. حين فوجئت بأنها تستيقظ من النوم، في العاشرة من صباح اليوم التالي.

"انت بتخرف بتقول إيه؟!"

- "بقول اللي انت سمعته، كل مرة نفس النظام.. حتى بعد ما الرجالة خدوا بالهم وعملوا حسابهم كويس، لسه عندنا نفس المشكلة.. زي ما يكون فيه عفريت بيخطف عريبتها من قدام عينينا، مانشوفلهاش أثر!"

"يا فرحتي بالرجالة! بجد؟.. مستواكم يفرح! قول للهايم بتوعك يخفوا من الأفيون ويبطلوا بص على النسوان وهما شغالين يا بيه.. الكلام اللي انت قلته لي دا لو اترفع في تقرير ممكن ماحدش فيكم يشوف بيته تاني، وقبل ما تفتكرني بهدك، وتعمل فيها دكر وتتنرفز عليا، أنا كمان معاكم في الورطة الهباب دي"

- "حتة عيلة تعمل فينا كل دا! على فكرة الموضوع كبير في دماغى.. م الأخر يا أنا يا هي.."

"بقول لك إيه، ماتجننش في عقلك وتحاول تتعرض لها.. انت عارف دي لو اتخدشت ولا شعرة منها اتمست ممكن يحصل لنا إيه؟!"

- "الكلام دا أنا مأفهموش، أنا مش عارف اتصرف إزاي بس أعرف مين اللي ممكن يتصرف!"

"انت هاتقول له؟! احنا مانضمنش رد فعله.."

- "يعمل اللي يعمله. هو أدرى منا بيها.. سلام!"

"(جمعية الباحثين عن شيء ما)؟ أه سمعت عنها.. إنما انتي عرفتها منين؟"

قالها سمير مندهشًا بينما يمد يده إلى ليلي، كي تناوله الكتاب. فسحبته بحركة عصبية، وقالت محنقة:

"يعني انت عارف إن الجمعية دي ممكن تساعدني وماقلتيش!!"

تأملها للحظات عاجزًا عن الرد، قبل أن يقول في النهاية:

"أنا الدكتور بتاعك يا مدام ليلي، ولازم تتأكدي إن همي الكبير هو مساعدتك في إنك تلاقي اللي ضاع منك.. ولو انتي مش واثقة فيا، يبقى مش ممكن هاقدر أساعدك!"

أصابها لهجته بصدمة، فتوقف الكلام في حلقها. قال سمير وهو يعفها بإشارة من كفه:

"وأنا ماقلتش إني عارف إن الجمعية دي ممكن تساعدك.. كل اللي قلته إني سمعت عنها مش أكثر! مازودتش حرف!"

رمقته ليلي وقد اعترها مزيج من الخجل، وخيبة الأمل..

"يعني دول إيه.. شوية نصايين!"

"ولا قلت كدا!"

أصابها انفعال مباغت، فقالت في صيحة محنقة:

"انت بتهزر وأنت شايفني في الحالة دي؟! يعني إيه الكلام دا مش فاهمة!"

"إهدي عشان أعرف أشرح لك.. مش هاتكلم معاكي وانتي متعصبية كدا، عشان مش هاتفهمي من كلامي غير اللي انتي عايزة تفهميه.. ممكن نهدا بقى شوية؟!"

زمت شفيتها، وألقت بجسدها على الكرسي مغاضبة في انتظار حديثه، فنزع نظارته الطبية وقال مسبلاً جفنيه بهدوء:

"مبدئيًا، أنا ماكنتش أعرف أي حاجة عن الجمعية دي غير من أسبوع، بالتحديد في نفس يوم الجلسة اللي فاتت. ولغاية دلوقت ماعرفش إن كانت بتتكلّم جد ولا بتهزر، ولا بتحاول تنصب بطريقة مبتكرة. وعشان كل دا وارد، مش هقدر أدي رأي فيها غير لو راجعت أسلوبهم في الشغل وعرفت هما بيعملوا إيه بالضبط.. دا اللي خلاني ما أقولكيش لما اتقابلنا آخر مرة، وقلت لك بس إن فيه مفاجأة حلوة مستنياكي، لغاية ما اتأكد من مصداقيتهم.. واللي خلاني استغربت لما لاقيتك عارفاهم، إنهم يادوب بدأوا شغل في مصر من شهر تقريبا زي ما قالوا لي.. فهمتي حاجة ولا أنا كنت بكلم نفسي؟"

"يعني دا اللي انت كنت...؟!"

"أيوه!"

"طب.. أنا أسفة!"

قالتها في صوت خافت متهدج بعد فترة صمت قصيرة، فرجع سمير بصره إليها ليجدها على وشك البكاء. نهض من مقعده واتجه نحو المقعد المقابل لها، ثم قال وقد أصابه شعور بالذنب نحو ما اعتراها:

"تؤ! وبعدين بقى؟! فيه بنوتة حلوة تعيط كدا وتبوظ الكحل بتاعها؟ مم؟! أنا مش زعلان منك يا ليلي، بالعكس أنا زعلان عشانك،

ونفسي أساعدك.. بس بشكل كويس، مش أي حاجة وخلص. ولا عايزاهم يجربوا فيكي، يقوموا يفرمتوا لك الشوية اللي فاضلين؟!"
رمقته مبتسمة رغمًا عن دموعها، فبدا شكلها مضحكًا للغاية.. فضحك، وضحكت لضحكه! وانتهى الموقف بلحظة صمت أخرى أطول قليلاً..

"طب اشمعنى بعثوا لك انت بالذات؟"

"أكيد مش أنا بس! متهيألي راسلوا معظم أطباء المخ والأعصاب، وأخصائيين النفسية.. عايزيننا نتابع نشاطهم، ونمدهم بحالات يختبروا صلاحيتها للمشروع العلاجي بتاعهم.. حاولت استفسر منهم عن خطة العمل، أو التقنيات اللي بيشتغلوا بيها، لاقيتهم متكتمين جدًا في النقطة دي، وقالوا إن أسلوبهم في العمل سري جدًا، وخايفين من تسريب الفكرة قبل ما يبدأوا يطبقوها، ويضيع عليهم تسجيل الابتكار!"

هزت رأسها في استيعاب مندهش..

"واضح أن الموضوع أكبر من مجرد حقن فيتامين B1.. وكل التهريج دا!"

قال مبتسمًا..

"طبعًا واضح إن الموضوع أكبر من كل دا.. بس السؤال: يا ترى هما شغالين في أي اتجاه؟!"

"انت شاكك فيهم؟"

"جدًا بيبي وبينك! والغريب إن ما عنديش أي سبب منطقي للشك دا.. طبعا دا كلام بالنسبة لموقعي من العلم يعتبر إهانة لشخصي، بس دي الحقيقة.. أنا مش برتاح للغموض، ولا بصدق إلا لو شفت بعيني"

"طب وإيه الحل في رأيك؟"

"مفيش غير حل واحد بس.. وأنا متيألي الموضوع يستحق التجربة"
نظرت إليه متلهفة، فقال معيدًا النظارة إلى ما فوق أنفه، وهو يخرج بعض الأوراق من درج مكتبه..

"الحل الوحيد اللي يسمح لي أتابع التجربة من قريب، وأكون من ضمن المشرفين عليها، إني أبعث لهم حالة للاختبار.. ومش كدا ويس! دا فيه عقد من حاجة وستين بند، معظمهم إقرارات وتعهدات وشروط جزائية.. لازم أمضيه قبل أي حاجة، وأبعثهم نسختهم، ومعاها تقرير مفصل عن حالة الشخص موضوع التجربة!"

"يعني آخرتها هاتحولني لأنبوبة اختبار يا دكتور! ماكنش العشم!!
وبعدين إيه حكاية الشروط الجزائية دي؟!"

"تخييلي! أنا لما جمعت المبلغ النهائي اللي مفروض أدفعه لو أسرار التجربة اتسربت عن طريقي، أو عن طريق حد من طرفي، ماعرفتش أعد كام صفر! بس مش مشكلة، ماظنش هايرموني في السجن مدى الحياة لو مادفعتش.. كلها كام سنة والحكاية تنتهي!"

"انت بتهمز! لو على الفلوس انت عارف، جوزي ممكن..."

"جوزك مايعرفش انك بتزوريني أصلاً، هايعرف بالجمعية دي
إزاي؟!"

فكرت حينًا قبل أن تقول..

"طب وجوزي ليه؟! أنا عندي اللي يغطي كل مصاريف التجربة.. أنا نسيت إني مليونيرة، وإن مش كل فلوسي هي فلوس سليم!"
قال سمير بلهجة قاطعة..

"ليلي من فضلك، أنا مش هاقبل..."

"ومش هاترفض!"

قاطعته، ثم قالت ببساطة:

"دي تجربتي وأنا المسؤولة عن تكاليفها، لاحظ إنك ضروري بالنسبة لي عشان أعرف أدخل الكورس.."

"انتي كمان وجودك ضروري بالنسبة لي عشان أعرف أتابع المشروع.. بالعكس، انتي يمكن تلاقي دكتور تاني، إنما أنا ماعنديش حد غيرك ممكن أقدم بيه"

"لو فضلت تعتبرني مشروع التخرج بتاعك كدا، هاحلف يمين بالله ما أنا مخطياها! بطل عناد بقى، ماتكبرش الموضوع.. وبعدين يا سيدي لو اعتبرنا إننا لازم نقسم التكاليف علينا احنا الاتنين، خلاص، ماتبقاش تاخذ مني رسوم زيارة!"

"والله مش عناد.."

"حساسية!"

"خلاص بقى!"

"طب ياللا اتصل بهمم واحجز لي، ولا فيه حاجة تانية ممكن تمنع؟"
تهند في استسلام..

"والله فيه كتير، بس أنا مش هاتكلم غير لما نبدأ التجربة.. ونبقى نحكم في الآخر!"

قاعة مهولة المساحة، مترامية الأرجاء بشكل مدهش بالنسبة لكونها قاعة مغلقة مغطاة. وكان اللون الأبيض يخيم على كل شيء

هناك. الجدران العالية، السقف المضيء، وحتى الأرضية العارية
المكونة من قطعة واحدة!

كان المكان باردًا مخيفًا.. يشبه العوالم الافتراضية التي شاهدتها
كثيرًا في الأفلام الأمريكية، لكن الأمر كان حقيقياً بلا أي خدع من أي
نوع. وقد ساهم توزيع الإضاءة الاحترافي، مع عدم وجود أي شيء مميز
بالقاعة - مثل تابلوه جداري أو مروحة سقف أو حتى قطعة من
السجاد - في جعل الغرفة تبدو وكأنها قطعة واحدة من العدم..
مصممة بلا أبعاد. وكأن عناصرها القليلة طافية بين السحب!

في زوايا القاعة، انتشرت أربعة مقاعد عالية ضخمة، أشبه بمقاعد
عيادات الأسنان، كذلك كانت بيضاء. وفيما بين الواحد والآخر مسافة
لا تقل عن الثلاثمائة متر! كان هناك ثلاثة أفراد دونها ضمن التجربة..

- "ليلى داغر.. رئيس مجلس إدارة مستشفيات (ليلى).."

- "محمود أو علاء.. لسه مش متأكد!!"

- "عزت السويفي.. ظابط شرطة.."

- ".....!!"

- "ولا حتى اسمك..؟!"

- "ماكنش معايا أي أوراق.. الدكتور اللي بيتابعني هو اللي تكفل

بكل النفقات!"

كانت الأنثى الوحيدة ضمن التجربة، لكن هذا لم يسهم في جعلها
تشعر بالغرابة في المكان.. إن الاغتراب والقلق كانا حاضران بقوة، دون
الحاجة إلى أي عوامل إضافية. تقريبًا لم تتبادل الحديث مع أي من
الثلاثة الآخرين سوى في اليوم الأول للتجربة، وكان الحديث في مجمله
بضعة جمل متحفظة للترحيب أو الاستفسار عن شيء ما.. واليوم

تجلس في مقعدها العجيب، وترى كل منهم عن بعد جالسًا في مقعد مماثل، لا يكاد الواحد منهم يميز تفاصيل أي من الثلاثة الآخرين، جالسين في إنتظار ما يجهلون..

لم تستطع تحديد فترة الإنتظار بدقة، لأنهم نزعوا عنهم كل الهواتف المحمولة وساعات اليد، لغرض لا تفهمه، لكنها اطمأنت عندما علمت أن القاعة بالكامل مراقبة عبر مجموعة من الكاميرات لا تراها، لكن سمير كان ضمن المراقبين، وكان هذا يكفي..

"مرحبًا بكم جميعًا في أولى برامج الإعداد والتأهيل.."

تصاعد الصوت من كل مكان بالعربية الفصحى، عبر مكبرات صوتية مخفية بعناية. وعلى الفور انتصبت أربع شاشات ثلاثية الأبعاد، واحدة أمام كل مقعد، ومقسمة إلى ثلاث خانات. تحمل كل خانة صورة شخص من الثلاثة الذين لا يشغلون المقعد.

"جمعية الباحثين عن شيء ما ترحب بكم.. وتتمنى لكم قضاء وقت مفيد، وتحقيق نتائج حقيقية ملموسة"

توترت ليلي، وتساءلت عن جدوى تباعد المقاعد إلى هذا الحد، إن كان كل منهم سوف يرى الآخرين بشكل أوضح مما إذا كانوا قريبين منه! ثم أصابتها بعض الطمأنينة عندما وجدت أن الصور في الشاشة أمامها تبتسم في سرور واستبشار، فلم يبد علي أي منهم القلق. من الواضح أن الأمر ممتع حقًا، أو هو خليق بأن يكون كذلك.. فلندع القلق جانبًا ولنستمتع قليلاً!

"حاول الكثير من العلماء تحديد السبب الرئيس في عملية فقد الذاكرة، أو ضعفها، أو تلاشيها بصورة تدريجية. وحدد بعضهم العديد من الأسباب الأساسية لهذا الأمر.. من بينها إصابات الفص الصدغي الأوسط.. أو نقص بعض العناصر مثل فيتامينات (E - A - B12 - B1)،

أو البوتاسيوم أو الفوسفور أو الكبريت أو الحديد.. أو الأورام التي قد تنمو فيما تحت المهاد.. أو إحتباس الدم الواصل إلى المخ.. أو حتى سوء التغذية. وكلها أسباب منطقية وواقعية للغاية.. فنحن لا نشكك في مجهود أولئك العظام الذين أفنوا أعمارهم في محاولات لفهم طبيعة الذاكرة البشرية.. لكن المشكلة الأساسية أنهم بدأوا في التعامل مع كل سبب من هذه الأسباب على حده، وكأنه عامل مستقل.. وتجاهلوا حقيقة أن كل تلك الأسباب تؤدي لنتيجة واحدة في النهاية"

صمت الصوت للحظات قبل أن يعاود الحديث في ثقة..

"يشبه الأمر إلى حد كبير عملية الموت! فللموت كمان نعمم أسباب عدة، تؤدي في النهاية إلى نتيجة واحدة محتومة.. وبما أن سر الموت والحياة خارج إدراك العقل البشري، فلم يجهد الأطباء أنفسهم بمحاولة منع الموت أو إيقافه، لأنهم يعلمون يقيناً أنهم لن ينجحوا في هذا.. لكنهم قاموا بمجهود جبار في محاولة حصر أسباب الموت والحد من إنتشار بعضها.. مثل الجلطات الدماغية أو الأزمات القلبية أو الأمراض والأوبئة.. أو حتى حوادث المرور. وتعاملوا مع كل سبب بشكل فردي حتى يصلوا في النهاية إلى نتيجة معينة، وهي الحد من أسباب الوفاة.

نحن لا نزعم أننا نعرف سر الحياة.. لكننا عرفنا مركز الذاكرة بداخل النفس البشرية، وحددنا سبل التعامل معه على الوجه الصحيح.. لذلك، أيًا كان السبب الذي أدى لفقد الذاكرة، فهو في النهاية أدى لشيء ما.. ونحن ببساطة نعرف طريقة إيقاف هذا الشيء!"

ترددت ليلى لحظة، قبل أن ترفع ذراعها بالنهاية في وجل..

"تفضلي!"

قالت بصوت مبحوح محرج..

"كلام حضرتك معناه إن الذاكرة لها علاقة بالنفس البشرية أكثر من الجسم، ومالهاش مركز مادي في الدماغ ممكن علاجه أو استبداله..؟"

قال الصوت في هدوء وبذات الثقة..

"الحقيقة أن الأمر يجمع ما بين علم المخ والأعصاب من جهة، وعلم النفس من جهة أخرى. هناك نظرية وضعها أحد علمائنا قسمت الإنسان إلى جزأين أساسيين.. جزء ملموس، وهو الجسد الذي يشغل حيزاً من الفراغ ويمكن لمسه.. وجزء آخر محسوس وهو النفس بأقسامها المتعددة. وهو جزء لا يمكن لمسه أو رؤيته، ولكن لا يمكن إنكار وجوده وتأثيره على الجسد. بالنسبة للجزء الخاص بالنفس، فقد تم قسيمه إلى عدة أقسام رئيسية.. منها الضمير، والعقل، والغريزة، والمنطق، والذاكرة.. ومنها طبعاً السر.. وهو الجزء المسؤول عن الحياة عندما تندمج النفس بالجسد. وما يعيننا هنا هو القسم الخاص بالذاكرة. فمن الخطأ أن نعتقد أن المخ وحده هو المسؤول عن ذاكرة المرء.. فما المخ إلا مجرد وحدة للتخزين من ضمن وحدات أخرى عند الإنسان، بينما ما يهمننا أكثر هو الجزء النفسي المختص بإعادة استخراج ما تم تخزينه من معلومات في الوقت المناسب وبالقدر المناسب، وعبر عدة مسارات بالغة التعقيد، مهمتها الأساسية هي ربط العناصر ببعضها البعض بشكل منطقي.. حتى تتم عملية الاسترجاع بالشكل السليم.."

وصمت لحظة، حتى تتمكن ليلي والآخرين من الاستيعاب، قبل أن يواصل الشرح..

"وفائدة عملية التنظيم تلك، أن ترتب كل العناصر المخزنة، من أشكال وألوان وروائح وصور ومفردات وأصوات وملامس.. وتصنع

بينهم جميعاً عدة روابط منطقية.. لكي لا تختلط الأمور في أذهاننا فنفقد القدرة على التمييز. بمعنى، إننا عندما نرى ثمرة التفاح، فإننا نتذكر اسمها وطعمها ورائحتها وآخر موقف أكلنا فيه التفاح ومن كان معنا وماذا قال وكيف كان صوته.. ذلك الصوت الذي نسمعه في الهاتف فنتذكر وجه صاحبه على الفور.. هل أمكنكم استيعاب هذا؟"

رفع عزت ذراعه ليلقى سؤالاً بدوره..

"تفضل!"

"معنى الكلام دا، إن ذاكرة الإنسان محتفظة بكل حاجة.. بس احنا بننسى عشان المسارات والروابط بتضيع أو بتبوظ؟"

"برافو يا سيد عزت.. هذا بالفعل هو أحد أهم أسباب النسيان، لكنه ليس كل شيء. فذاكرة الإنسان - والكائنات الحية عموماً - لا تقتصر على ما عايشه المرء بذاته على المستوى البيئي.. بل إن جزءاً هاماً لا يمكن إغفاله من الذاكرة، يعود إلى العامل الوراثي أيضاً. هل سمع أحدكم من قبل بمصطلح الوجدان الجمعي..؟!"

رفع الأربعة أيديهم على الفور..

"جميل.. هل يفهم أي منكم معنى هذا المصطلح بشكل صحيح؟"

رفعت ليلي وحدها ذراعها عاليًا..

"تفضلي يا مدام"

"أنا قريت إن الوجدان الجمعي، هو انتقال الخبرات والتجارب عبر الأجيال، بشكل وراثي.. ممكن مع توالي الأجيال نلاقي خبرة معينة بدأت تبهت أو حجمها جوانا يصغر بشكل تدريجي.. بس في النهاية، هانلاقي النتيجة النهائية، أو (الخلاصة) موجودة.. وبتخرج وقت اللزوم، عشان تساعد الإنسان على اتخاذ رد فعل صحيح في ظرف صعب.. مثلاً!"

"إلى حد كبير اقتربت من الحقيقة، فنحن لم نقض ليالينا نياماً فوق غصون الأشجار، ولم يطاردنا دب متوحش بينما نجمع التوت البري في الغابات.. لكن كوابيدنا جميعاً تمتلئ بالمطارادات، والسقوط، والعديد من المواقف التي لم نقابلها في حياتنا من قبل، ربما فكر شخص ما: قد تكون تلك الأحلام وليدة الخيال، ليس إلا.. لكن هذا لا يفسر أن نشترك جميعاً في ذات الأحلام ونتبادلها فيما بيننا، ربما بالتفاصيل ذاتها!"

توترت ليلي على الفور، وقد مر بخاطرها تفاصيل الكابوس الرهيب، الذي يتكرر كل ليلة تقريباً بلا انقطاع.. فبدأت تستشعر برودة الجوبداخل القاعة أكثر من ذي قبل.

ومازال الصوت يتكلم بذات الهدوء المستفز..

"نحن إذن نحتاج إلى عدة عوامل كي نستطيع التمتع بذاكرة طبيعية. العامل الأول هو العناصر التي مرت بنا، أو تخيلناها على مدار عمرنا، وتم اختزانها في الذاكرة بواسطة وحدات التخزين. العنصر الثاني هو وحدات التخزين نفسها، والمتمثلة في جزء ما من المخ بالإضافة لذاكرة الأعضاء والخلايا.. فللخلايا ذاكرة خاصة بها بالمناسبة. بمعنى أن خلايا أطراف الأصابع تتذكر الملمس.. وخلايا اللسان تتذكر التأثيرات التدوقية.. وخلايا طبلة الأذن تتذكر الترددات الصوتية التي سمعتها من قبل...!"

رفعت ليلي ذراعها فجأة، وقد انتابتها حالة مفاجئة من الحماس والدهشة..

"تفضلي يا مدام..!"

"لو سمحت.. النظريات دي واقعية فعلاً؟! أنا آسفة في السؤال، بس أنا قريت كتير جداً في موضوع ذاكرة الخلايا دا.. الكلام دا معناه

إننا لو قدرنا نخترع جهاز، يقدر يستقبل الحواس البشرية، ويترجم الإشارات العصبية، لصور وأصوات وروايع...!"

انحشرت الكلمات في حلقتها الذي جف من فرط الإنفعال، فلم تكمل عبارتها. مرت لحظات قليلة قبل أن يتكلم الصوت من جديد..

"لا أعرف إن كان طبيبك / وكيلك قد أخبرك أنه قد وقع عقدًا ينص على سرية كل ما يمكن أن يدور بداخل هذه القاعة من حوارات ونقاشات أم لا.. في الحقيقة ليس طبيبك وحده، بل كل الأطباء المتابعين لكم، والذين رشحوكم لدخول التجربة، والذين يراقبون كل شيء الآن. على أي حال، كل هذه النظريات تعتبر ملكية خاصة لجمعية الباحثين عن شيء ما.. والجهاز الذي تخيلت مدام ليلى وجوده؛ موجود بالفعل وقيد التطبيق، ولا ينتظر إلا دوره في سلسلة الاختبارات التي سوف تجتازونها خلال الأيام القادمة..!"

تفجرت مفاجأته في القاعة كالقنبلة، فأخذ كل من الحضور يتأمل صور الثلاثة الآخرين في الشاشة الكبيرة أمامه، وكأنه ينتظر منهم أي إشارة تدل على صدق الحديث!

"هل تعلمون كيف تم قبول ترشيحكم لخوض التجربة؟!"

لم يتلق ردًا، فتابع..

"أولاً، في حالة الإصابات الخاصة بالدماغ، لا بد وأن تكون الإصابة قد شفيحت تمامًا دون أن تترك أي تشوّه، أو خلل بوظائف الجهاز العصبي، أو أي نوع من الصعوبة في انتقال الإشارات من وإلى المخ. حتى نضمن سلامة وحدت التخزين التي سوف ننقب فيها عما نبحث! لم تتم قبول حالات الألزايمر بالطبع.. فليس من المنطقي بذل جهد مهما كان، مع مخ مهدد بالتحول في أي لحظة إلى كتلة من الهلام..!"

تأففت ليلي وقد صدمها التعبير، لكنها تابعت وهي تلاحظ أن وجوه الثلاثة الأخرى تتابع بنهم واهتمام كبيرين..

"الشرط الثاني والذي لا يقل أهمية عن سابقه بالنسبة لنا.. هو الاستعداد النفسي لتحريك الصخرة الكبيرة!"

"الصخرة الكبيرة..!!؟!"

"من المعلوم أن العقل البشري ينقسم ما بين جزء باطن وأخواع، والأخير هو ما يتعلق بميكانيكا التذكر وترتيب مسارات التداعي الفكري، وفي نفس الوقت ملاحظة كل العناصر الجديدة، وإرسالها إلى العقل الباطن، وهو القسم الآخر من العقل، والمختص بتنسيق وأرشفة كل العناصر وترتيبها بعد استقبالها من العقل الواعي.. ولأن كم المعلومات التي يمكن اختزانها بداخل العقل الباطن مهول، لا يمكن تصور حجمه، لدرجة أن بعض العلماء قالوا إن ما بداخل ذاكرة الإنسان الواحد من معلومات لو تم تدوينه لملاً 90 مليون مجلد ضخمة، ولو وضعت هذه المجلدات واحداً بجانب الآخر، لامتدت لمسافة 450 كم!

فمن غير المعقول أن تظل كل هذه المعلومات في المقدمة طيلة الوقت، لذلك فقد قام العقل الباطن بتصنيف المعلومات والذكريات، وترتيبها، وتجميدها، فلا تخرج المعلومة إلا عندما يطلبها العقل الواعي.. كأن ترى شخصاً لم تقابله منذ زمن، فيرسل العقل الباطن رسالة إلى العقل الواعي تحمل صورة الشخص واسمه وظروف معرفته وما إلى ذلك، ثم تعود مرة أخرى إلى مكانها في العقل الباطن لتفسح المجال لأمر أخرى أشد أهمية في الوقت الحالي.. ونقطة الوصل بين العقلين الواعي والباطن عبارة عن بوابة ما، مفتوحة بقدر معين، كي تتحكم في تدفق المعلومات والعناصر بينهما.. فلا هي مفتوحة عن آخرها، فيغرق الإنسان في عالم لا نهاية له من الألوان والأصوات

والروائح، ولا يستطيع التواصل مع العالم المحيط به، لعجزه عن استقبال أي مؤثر خارجي، كما يحدث في حالات التوحد.. ولا هي مغلقة تمامًا فيفقد المرء القدرة على استرجاع أي حدث ولو كان قد وقع منذ لحظات، كما نرى في لحظات الصدمة أو الذهول.."

"واحنا إيه تصنيف الحالة بتاعتنا طبقا للنظرية دي؟ يعني إيه وضع بواباتنا بالظبط!"

"في الحقيقة، إن بواباتكم مفتوحة بقدر مناسب تمامًا.. ولذلك استطعتم استيعاب كلماتي، واستطعتم التواصل مع من عرفتموهم خلال الفترة القصيرة التي تلت الحوادث.. واستطعتم تكوين حصيلة معلوماتية صغيرة، لكنها تعمل بكفاءة، أليس كذلك؟ لكن المشكلة أن الحادث أدى إلى نوع من الانهيار الطفيف بداخل العقل الباطن لكل منكم.. فأدى ذلك بدوره إلى سقوط صخرة كبيرة في منتصفه، قامت هذه الصخرة بدور السدّ، الذي يحتجز خلفه كل العناصر والمعلومات، التي اختزنها طيلة أعماركم السابقة.. وتركت جزءًا صغيرًا خاليًا من العقل الباطن.. هو الجزء الذي تصله البوابة بالعقل الواعي.. فأمكن استخدام تلك المساحة الضئيلة في التعامل مع العالم المحيط، من تخزين وإرسال وتذكر.. دون أن تسمح الصخرة بتسرب أي من المعلومات القديمة التي سبقت الحادث.. هل أمكنكم استيعاب هذا..؟"

أوماً أريعتهم برؤوسهم، ببطء ودهشة ويأس وحماس!..

"من منكم إذن مستعد لمساعدتي في زحزحة الصخرة الكبيرة..؟!"

"إيه رأيك في الكلام دا، تفتكر فعلا يقدرُوا يطبقوا اللي اتكلموا عنه؟ تفتكر فيه أمل حقيقي؟!"

تأمل سمير، ليلى الجالسة في حجرة مكتبه، وقد تضاربت فوق ملامحها مشاعر الحماس، والقلق، والترقب مع الجدل؛ بينما تلقى بسؤالها..

"إيه رأيك انتي؟!"

رمقته عاجزة عن الرد، فقال:

"والله مش عارف فعلاً.. مش هانكر إن طريقتهم عجبتني، وفيها لمسة احترافية عالية. وواضح كمان إن خبراتهم وإمكانياتهم مش قليلة.. بس عندي إحساس إن أسلوبهم مسرحي حبتين، وبيحبوا الأفورة!"

"قصدك على الكراسي البعيدة، والشاشات وكدا؟"

"مش بالضبط.. الحكاية لها سبب، مش هقدر أشرحه لك دلوقت.. أحسن بعدين الموضوع كله بيوظ بسبب حاجة تافهة مالهاش أي لازمة!"

"مش محتاج تقول لي، أنا عرفت لوحدي من غير مساعدة.. بس الحق يتقال كانت فكرة ذكية، دخلت دماغي!"

"وعرفتي إيه بقى يا ناصحة؟!"

قالت ببسمة جذابة، بها الكثير من اللؤم الصبباني..

"أراهنك، وأنا قاعدة قلقانة مستنية التكتيفة دي تخلص، وبتفرج على ثلاث وشوش مبسوسة ومبتسمة ومرتاحة.. كان فيه ثلاثة غيري كلهم متوترين وقلقانيين، وكل واحد فيهم شايف قدامه شاشة علميا ثلاث وشوش تانيين بيبتسموا! يعني.. عشان يساعدوا على نشر الاسترخاء في المكان من غير مجهود كبير.."

أطلق سمير ضحكة فرحة وهو يهتف..

"يا بنت العفاريت! أسف والله sorry معلش.. بس دي قوة ملاحظة
ولا مجرد استنتاج؟"

"في الأول كان مجرد استنتاج، ماكنتش مرتاحة للأسلوب الغريب
دا، مش منطقي أبدًا يعني يبعدونا عن بعض، وفي نفس الوقت يخلونا
نشوف بعض في شاشات. بعدين حصلت حاجة صغيرة خلتي
اتأكدت!"

رمقها في تساؤل مهتم، فأتبعت..

"الجدع دا اللي ماكنش فاكر اسمه! كان عنده حركة عصبية
عملت لي قلق، وأنا كنت شايفاه من بعيد عشان كان في وشي تقريبا..
طول الوقت يقوم ويقعد ويقوم ويقعد، زي ما يكون الكرسي بتاعه
فيه مسمار! بس برنامج المحاكاة بتاع الهوات ما أخذش باله غير في
آخرتلت ساعة من الجلسة لسوء حظهم!"

أطلقا الضحكات المرحة، وتقارع كفأهما في سرور، وكأنهما حققا
انتصارًا على هذه الجمعية المتعطرسة، قبل أن يقول الدكتور بجديّة..

"لازم تستعدي كويس للتجربة الأولى اللي هاتتعمل بعد بكرة.. تنامي
كويس، مش أقل من تمان ساعات. مش عايزين هفوة بسيطة تبوظ
الليلة كلها.. المنبهات بأنواعها ممنوع.. ويستحسن لو وزنك زاد اتنين
ثلاثة كيلو!"

حيته مبتسمة، وخرجت تفكر فيما قد يحدث بعد مرور الأربعين
ساعة القادمة..

"لو سليم شافني كدا هايقول علينا مجنونة.. مش بعيد يرمي عليا اليمين والنعمة!"

هكذا فكرت ليلى بطريقة ساخرة، بينما تتأمل صورتها، والمكان من حولها بنظرات متشككة. كانت قاعة كبيرة مغلقة مظلمة، مكتظة بالشاشات والمراقب والأجهزة العجيبة. بدت شبيهة بغرفة عمليات (BATMAN) كما اعتادت مشاهدتها في السينما، إلى حد كبير! وضعوا فوق رأسها خوذة ضخمة، تشبه خوذة الدراجات البخارية، إلا أن قممها كانت تمتلئ بالأسلاك الدقيقة والهوائيات القصيرة الحساسة، التي تتصل بأشياء ما لم تهتم بمعرفتها.. ولو اهتمت لما عرفت!

والسبب هو ذلك الحاجز المزلق، المصنوع من مادة لدنة شفافة، والذي يغطي نصف وجهها العلوي، بينما تتقاذف فوقه نقاط ملونة، تدور في الهواء بلا نهاية، على طريقة الـ Screen saver.. وقد كان ذلك الحاجز هو في حقيقته شاشة صغيرة بالفعل. شاشة مجسمة تكاد ألا تراها، لكنها تتابع عليها حركة النقاط المضئبة، ثلاثية الأبعاد، وكأنها تدور حولها شخصيًا، ومن قلب الخوذة تصاعد صوت أنثوي هادئ يهمس في رقة..

"أنت الآن بين أصدقائك وأحبائك يا ليلي.. الكل هنا حريص عليك، ومهتم لشؤونك.. ولسوف نُسرُّ للغاية لو وُفِّقنا في معاونتك حتى تعثرين على ما فقدت.. ألسنت تعلمين هذا جيداً؟!"

هزت ليلي رأسها إيجاباً دون أن تنطق، فقد كانت مشغولة بتبديل شكل النقاط الملونة، والتفافها في تحركات رشيقة منتظمة، ذكرتها بعروض الباليه، ذلك الفن الذي كانت تهتف كلما رآته بأنها لا تطيقه، وهي صادقة.. لكن هذا لم يمنعها من متابعة عروضه في كل مرة تصادفه على شاشة التلفاز، وبمنتهى الشغف والإعجاب.. حتى إذا ما انتهت العرض، عادت إليها طبيعتها، فتنهض متأففة وهي تستعجب من كل هذا الهراء الذي يضيع فيه المرء وقته وماله!

"هل تشعرين بهذا الاسترخاء الذي يسري بأوصالك.. وهذه السكينة التي تُحَقِّن في عروقتك حقناً؟ كم هي رائعة الحياة، حين تنتهي كل المشكلات، وتُرفع عنا الضغوط والمسؤوليات.. ولا يتبقى من الحياة إلا الراحة والخواء والفراغ.. ما أروع أن نترك كل شيء خلف ظهورنا، ونمنح لأرواحنا المكدودة المرهقة، فرصة للراحة والتقاط الأنفاس.. أن ننطلق ونلهو ونمرح.. أن ننام ملء جفوننا، دون منغصات أو مسؤوليات أو التزامات نحو أي شخص أو شيء مهما كان.. اطمئني عزيزتي.. لن يضايقك أحدهم ونحن هنا بجانبك.. نحرسك ونسهر على راحتك وحمايتك.. فلتستسلمي لتلك اللمسة الحانية الرقيقة من أنامل حورية الأحلام الحسناء، مثلك.. لا، بل ربما كانت حسناء حقاً، لكنها أبداً لن تضاهيك حسناً.. ولن تنافس جمالك الفريد.. ولتنامي هانئة البال.. كلنا هنا، فلا تدعي شيئاً يذهب بطمأنينة قلبك"

كادت ليلي تخبرها أن معها كل الحق، فهي أحوج ما تكون إلى الراحة والنوم بالفعل.. وكادت أن تسترسل، فتصف لها كيف أنها لا

تنام تقريبًا بسبب الكوابيس المخيفة التي توقظها في كل ليلة ألف مرة، مذعورة غارقة في العرق البارد، لكنها لم تجد داعيًا لكل ذلك.. فيبدو أن ذات الصوت الدافئ تعلم.. أليس هذا اختبارًا نفسيًا، كل الغرض منه هو اكتشاف ذاتها، ومعرفة مكنونات صدرها وعقلها؟

لذلك فقد أثرت إسبال جفنيها ببطء دون أن تعلق، خاصة وأن النقاط الملونة قد هدأت حركتها وتباطأت، إلى حد أنها بأب العين العرض قد انتهت.. وأن أوان الراحة أخيرًا. وبعيون مغلقة وأعصاب مسترخية، تلقت كلماتها الناعمة ذات الصوت المنوم كأنها تستمتع بحدوتة ما قبل النوم..

"رائع.. لا تدعي شيئًا يشغلك عن مهمتك الأصلية.. فلتسترخي تمامًا، ولتستمتعي بكل لحظة.. فكري في جزيرة استوائية نائية.. تدور في سمائم عشرات النوارس البيضاء المبهجة.. وتخيلي نخلي جوز الهند التي شد بينهما ذلك الفراش الخلوي المعلق.. هل يروق لك المشهد..؟!"
هممت ليلى بكلمة مهمة تفيد الإيجاب، وعلى شفيتها ارتسمت بسملة مسرورة..

"إنه لك يا صغيرتي.. فلتسترخي ولتستمتعي بنسمات الهواء الباردة اللطيفة تحت ظلال النخيل.. ولتهنئي بتلك الاهتزازة الرتيبة المدغدغة للمشاعر.. من يمز الفراش؟.. لا يهم.. يكفي أن الحياة صارت أحلى.. فلن نشغل بالنا بتفاصيل مرهقة لا غاية من ورائها..!"

اتسعت ابتسامه ليلى بعيون مسبلة.. وتركت ساقيها تنفردان، وأرخت ظهرها قليلًا وهي تستشعر اهتزازة طفيفة في مقعدها.. طفيفة لكنها ملحوظة، ومحبية. وأنعشت روحها تلك الهبات الخفيفة من الهواء البارد، التي تضرب وجهها كل بضعة لحظات، فلم يعد يهمها إن استعادت ذاكرتها أو كانت نهاية العالم بعد عشرين دقيقة!

"هل أنت سعيدة؟.. هل يروق لك هذا؟"

هزت رأسها ببطء إيجابًا..

"هل تتمنين دوامه للأبد..؟"

هزت رأسها إيجابًا بحماس..

"هناك نخلتين أخريين بجوارك.. وبينهما رُبط فراش خلوي آخر يشبه فراشك.. تخيلي من أتى ليرقد هنا، ويستمتع معك بهذا الطقس الجميل بعيدًا عن الدنيا كلها..؟!"

همست بصوت شبه مغيب..

"سليم..؟!"

"لا، ليس سليم.. فكري قليلاً!"

قالت بذات الصوت دون أن تهتم بشغل ذهنها لحظة واحدة..

"مش عارفة.. مين دا؟!"

"لنحرب، إن كنت تذكرين هذا الاسم.. إنه فييوناتشي!"

مرت دقائق من الصمت قبل أن تهز رأسها بحركة بطيئة مهمة، لم تلبث أن تحولت لإيماءة ضعيفة بطيئة، كانت هي كل ماتحتاج المرأة ذات الضوت الناعم لرؤيته..

"هايل يا دكتور! ليلي بتستجيب بشكل رائع.."

قالها سمير في سعادة وهو يتابع الترجمة على ذات الشاشة التي تنقل له صورة ليلي، بداخل الحجرة المظلمة، وقد اعتمرت الخوذة العجيبة. فقالت الطبيبة الحسنة التي تجاوره في ثقة بعربية كسيحة..

"بالطبع يا دكتور سمير.. We are proud to be have the first

technology in the world in this specialization.. لقد تذكرت لغتها

الأصلية في ظرف لحظات.. هل رأيت كيف تحول مجري الحديث من العربية إلى الإيطالية في سرعة وسلاسة دون أي صعوبات..؟!"

انشغل سمير بمداعبة أزرار هاتفه الجوال، وهو يتابع الترجمة التي تصف حوارًا بين ليلى وصاحبة الصوت المنوم، التي تجلس على مقربة منهم وقد وضعت على رأسها سماعات للأذن تتصل بميكروفون دقيق جدًا.. لذلك كانت تشير إليهم كل بضع لحظات بخفض الصوت. كان الحوار يدور حول والده ليلى ووالدها الإيطالي المتوفى، وحياتها قبل الانتقال إلى الإسكندرية.. هذا ما بدا على شاشة الترجمة الفورية، التي كان يقوم بها رجل أسمر يجلس في نهاية القاعة، وتقارع أنامله لوحة المفاتيح بسرعة رهيبية كالأبالسة. راحت ليلى تجيب بهدوء وسهولة أحيانًا، وفي قليل من الأحيان كانت تواجه شيئًا من العسر في تذكر حقيقة ما، فكانت المرأة تساعدها كثيرًا. قال سمير..

"أه طبعًا شفت.. آخر حاجة فهمتها، الكلام عن النوم والاسترخاء وحرورية الأحلام.. بعدها السيرك اتنصب فجأة! أنا ما بفهمش إيطالي بس بميزها بسهولة أول ما اسمعها"

ابتسمت الطيبية..

"Very nice.. فلنتابع إذن ما يجري، علّنا نصل إلى نتيجة سارة!"

والتفتت إلى صاحبة المايكروفون التي تخاطب ليلى، بنظرة متسائلة، فأجابتها الأخرى بابتسامة مسرورة. يبدو أنهم يحققون نتائج. هلموا هلموا.. نريد الانتهاء من هذا الكابوس في أسرع وقت ممكن.. قال سمير متابعًا بتركيز وحماس:

"أه طبعًا، يالانتابع.. أسف على المقاطعة يا دكتورة لورا.."

"مرحبًا بك بيننا للمرة الأولى.."

تسارعت شدة هبوب الرياح أكثر.. مما زاد من رعيها..
ومع الوقت صار الاحتفاظ بثوبها قائمًا عليها، عملاً بطوليا!
تلفعت بذراعها.. وتركت الرمال تضرب وجهها وساقها بمنتهي
الحرية..

"أنت منذ هذه اللحظة لنا.. بالكامل!"

بدأت الصواعق تضرب الأرض وتنتشر في السماء، ثم نزلت الأمطار
كالمسيل..

من بين كل هذا، لاحظت ذلك الظل الكبير..
الذي يهبط ببطء وهدوء..
نحوها..

كانت تخشاه إلى حد رهيب.. وبذات الدرجة كانت تشناق إليه!
لم تأبه بتفسير مشاعرها، فالأمر منذ ابتداء وهو فوق كل تفسير
عقلاني.

كانت مستعدة لكل هذا منذ البداية..

منذ أقدمت على تلك الخطوة التي سوف تحمل لها تغيرًا جذريًا في
مجري حياتها إلى الأبد..

لن يعود أي شيء مثلما كان عليه في السابق.. ستبدأ مرحلة
جديدة..

مرحلة تحمل لها القوة والسطوة والسيطرة والعلم والاقتراب..
والرعب....

كان هذا قدرها.. وكان هذا ثمنًا مناسبًا لاختيارها حياتها الجديدة..
ولم يكن لديها مفر من أن تقبل به..

وبرغم استعدادها منذ البداية، وبرغم توقعها إلى اللحظة، إلا أنها
لم تتخيلها على هذا النحو..

كانت خائفة من كل ما يحيط بها..

وحين تفيق من خيالاتها وذكرياتها إلى الواقع، الذي لا يقل هولاً ولا
غرابية..

فترى اقترابه الحثيث منها..

وتطمئن بوجوده، إلى أن أي من هذه المخلوقات سوف لن يجروا
على الاقتراب منها..

ثم تكتشف أنه تخافه هو ذاته.....!

لم تحاول رفع رأسها لأعلى، فلم تود أن ترى المشهد كاملاً. فقط
استسلمت لليد المخليبية القوية، التي امتدت لتقبض خصلات شعرها
الثائر، ليس فقط بفعل الرياح.. وتدفع رأسها للانحناء نحو الأرض..
وبصوت كأنه يأتي من قلب أعرق حفر الجحيم، خاطبها مجدداً، لتزداد
ثورة الرياح.. ويشتد هطول السيل.. وتتفجر الدماء من باطن الأرض في
عيون صغيرة لا نهائية، فتعود الرمال لتتشرها من جديد..

"أيتها الفانية البائسة، قبل أن يسمح لك برؤية وجه سيدك
وأبيك.. ينبغي عليك أولاً أداء القسم والعهد.."

أنهى عبارته، ثم شعرت من فورها بخيط من الدماء يسيل من
جهتها إلى حاجبيها في غزارة مرعبة، ليسقط على الرمال في قطرات
لزجة ثقيلة. وفاجأها من يهرع إليها بكأس كريستالية أنيقة مترفة،
ليحاول استنقاذ دماءها قبل أن تمتصها التربة الجشعة.. هذا قبل أن
تستشعر الألم الحارق في موضع الجرح، وكأنه تم باستخدام شفرة
شديدة الحدة..

"اللعنة.. إنه يستخدم مخالفته بمهارة احترافية عالية!"

فكرت بلا صوت، فأتاها الرد كأنها جهرت بعبارتها وأكثر!

"حقًا قالت الفنانة.. وليس هذا بعقاب، بقدر ما هو وسيلة لإسالة
بعض الدم الفاسد، الملوث.. أنت تعلمين طقوس تجديد الولاء بالدم..
فلا تتجاوزي"

هزت رأسها مرتجفة من قمة رأسها إلى القدم، سمعته يقول..
"لقد نالك الشرف الرفيع بتلقي نجمة الأسرار.. تراث المعرفة،
وذروة الولاء.. ولقد تم كل شيء كما أردنا له بالضبط.. سوف تذكرين
كل شيء.. وسوف تتولين الأمر من الآن فصاعدًا.. لقد حان الوقت
لتصمت الألسنة.. وتنحني الجباه.. ويزرق الدم.. فلتتدخل تعويذة
العبودية لإنهاء الأمور العالقة"

كانت في هذه اللحظة تبكي بالفعل.. وهي التي ما بكت من قبل
قط.. تبكي رعبا، وقهرا، وألما.
لكنها لم تبك ندما..

وعلى الأرض كادت أن تفرغ محتويات أمعائها من هول الموقف..
لكنها منعت نفسها بكثير من العسر لكي لا تثير غضب سيدها..
"لقد حان الوقت.."

التفتت إلى جوارها لترى اليد الممسكة بالكأس الكريستالية
المضغمة بدمائها.. كانت تقرب منها..
من شفقتها.....!

"إيه اللي بيحصل يا دكتورة، ليلى جرى لها إيه؟!"

صاح بها سمير وهو ينتفض من مجلسه فزعًا، وقد هاله ما رأى
على حالة ليلى من تبدل مروع. فقد كانت تجلس هانئة كقطعة، لا يرى
من وجهها سوى شفيتين تحملان إبتسامة راضية ساحرة، قبل أن يبدو
على شفقتها وحركتها قلقًا وتوترًا.. ثم تهض واقفة بشكل مفاجئ، بينما

تنزع عن رأسها الخوذة، وتلقي بها في ركن المكان، وعلى وجهها ارتسم
تعبير لم يصدق رؤيته. تعبير شخص مجنون يسعى إلى القتل!

نهضت لورا فزعة بدورها، وهي تصرخ في المرأة التي تتولى مخاطبتها
عبر الميكروفون..

"What the fuck!?!.. فلتقومي بإنهاء هذه الفوضى حالا.. ماذا
صنعت بها أيتها التعسة؟!"

لكن نظرة واحدة من سمير إلى وجه تلك المرأة، جعلته يفهم على
الفور.. لقد خرج الأمر تمامًا ونهائيًا عن نطاق سيطرتها. لقد جنت
ليلي!

حاول الخروج من الباب المؤدي إلى القاعة، التي تقف فيها ليلي
وحيدة، ترمق العدم بذات النظرة الشيطانية، لكن لورا منعتة بجذبة
عنيفة..

"لا تحاول، أرجوك.. سنعمل على تهدئتها فورًا، ولكن لا تعرض
نفسك وتعرضنا لكل هذا الخطر.. You don't know anything
!..about it"

رمقها سمير غير مصدق لكل هذا الجنون، ثم صرخ في ثورة وهو
ينفض ذراعها عنه..

"انتوا عملتوا فيها إيه؟! قسمًا بالله لا أطربق المكان دا على دماغكم
لو جرى لها حاجة.. دي على الأقل صدمة نفسية، وديني لا اخرب
بينكم.. إوعي!"

وكاد ينطلق مرة أخرى نحو الباب، لو لا أن انطلقت صرخة عنيفة
من حلق لورا، حملت كل الرعب..

"Oh God! We did this ..Have we brought it back?!!"

التفت في دهشة مشوبة بالخوف نحو الشاشة التي تنقل له صورة ليلى.. وكان ما يراه لا يصدق.. لا يمكن أن يصدق بحال!

ظلام..!

"معناه إيه اللي حصل دا..؟!"

"دا أقل واجب! دا انت أدري بيها وبعمالها مننا.."

"وفين لورا والباقيين؟"

"مافضلش غير لورا، نقلوها العناية المركزة من شوية.. حالتها زي الزفت، واحتمال ماتقومش تاني بعد العلقة دي"

"والدكتور اللي كان مع ليلى..؟"

"ولا جرا له أي حاجة، ولا خدش واحد.. كأن الضربة كانت متوجهة صح!!"

"كل اللي حصل دا وتقول لي متوجهة؟! دي لو كانت قنبلة نووية انفجرت في المكان ماكنش حصل اللي حصل! بس واضح إنها عملت له نوع من الحماية قبل ما تجيب الفيلا كوم تراب.. الله يخرب بيتها على بيت اليوم اللي اشتغلنا فيه الشغلانة الطين دي!"

"طب واحنا هانعمل إيه دلوقت؟"

"هانستنى.. على أي حال هانت"

"أنا فين.. هو إيه اللي.... آه!!"

"شششش! حمدلله على سلامتک.. ماتتعيش نفسك خالص، انتي محتاجة ترتاحي"

"احنا فين، ومين اللي جابنا هنا؟!"

"احنا في المستشفى، مستشفى دكتور سليم جوزك.. وأنا اللي جيتك هنا. زمانه عرف كل حاجة دلوقت!"

"عرف إيه؟!"

"عرف إنك بتزوري عيادتي، وعرف بالجمعية اللي رحناها.."

"الجمعية..!"

صاحت بها ليلي ملتاعة، بينما تهب جالسة من مرقدتها، وقد انتابتها حالة من التشتت والضياع الذهني..

"إيه اللي حصل في الجمعية؟ أنا آخر حاجة فاكرها الجزيرة الاستوائية، وجوز الهند و.. كان هناك، أنا شفته!"

توقفت ليلي عن الحديث فجأة، وقد أصابها الشرود بحالة انفصال تام عن العالم المحيط بها.. فقال سمير الجالس بجوارها يستحثها على التذكر..

"هاه! حاولي تفتكري، مين اللي كان معاكي؟"

"أنا.. أنا كنت تحت تأثير التنويم المغناطيسي، صح؟"

هز رأسه مؤمناً..

"الإيحاء.. أيوة، كنتي بتتكلمي إيطالي زي العفريتة، عن أبوكي وأمك.. أنا استغربت إنك بتتكلمي إيطالي بالشطارة دي كلها!"

تأملته في اندهاش وهي تحاول الإمساك بخيط واحد، يذكرها بما حدث وهي تحت تأثير التجربة، لكنها لم تفلح..

"نعم؟! إيه الكلام اللي بتقوله دا!.. وإيه علاقة الحاجات دي بالجزيرة واللي كان معايا، اللي مش عارفة افكره؟"

"مين دا اللي كان معاكي؟ حد مهم بالنسبة لك يعني؟"

"مش فاكرة حاجة خالص، والله ما عارفة افكر! زي ما يكون حلم ولا كابوس! مش عارفة أجمع كلمتين من اللي اتقال.."

وزفرت في يأس، فربت كتفها مهوئاً..

"يعني أكيد مش جوزك مثلاً؟"

ترددت لحظات طويلة، قبل أن تقول بلا اقتناع..

"يمكن، مش متأكدة.. مين غيره تفتكر يعني؟!"

"بتسأليني أنا؟!.. شكلهم كانوا مسيطرين جامد في الجلسة المباركة

دي!"

تأملته وهي تتحسس رأسها شاعرة بالصداع وبعض الدوار..

"وانت، بتعرف تتكلم إيطالي كويس؟"

قال في هدوء وكأنه يكتم حملاً ثقيلاً..

"يعني على قدي، مش قوي.. بلفابوري سينيورا، دا أخري! كان فيه

ترجمة فورية طبعا، والدكتورة كانت بتشرح لي أول بأول، وتقريبا

فهمت سياق الكلام يعني"

"مين اللي شرحت لك، أنني دكتورة دي؟"

"مش هاتعرفها، هي بيضا وشكلها أوروبي وكلامها يضحك.. اسمها

لورا"

"مين!!?"

"ليلي! وطي صوتك، انطرشتي؟ احنا في مستشفى هنا مش في الملاهي!"

"معقول تكون هي دي اللي...."

ثم كتبت عبارتها عندما ألقى إليها سمير بهاتفه الجوال..

"إيه دا؟!"

"موبايلي! أنا سجلت عليه المحادثة بالكامل، وانتي تحت تأثير التجربة، من غير ما حد ياخد باله.. كنت عايزك تترجمي لي الكلام عشان كان فيه احتمال كبير يحصل اللي حصل، وتنسي.."

تركها سمير تراجع نص الحديث، دون أن يحاول مقاطعتها، ودون أن يبالي بما يطرأ على وجهها من تعبيرات تتراوح ما بين الدهشة والصدمة والرعب والفهم. وعاد بذكرته إلى الليلة السابقة. في مقر الجمعية.. قبل الكارثة. واسترجع كل التفاصيل، منذ بدأت تلك الحالة الغربية تنتابها، وحتى استيقاظها هنا منذ قليل، بينما هي - كالعادة - تجهل كل ما حدث.

لم ينتو إخبارها بما حدث، كي لا يثير ذعرها.. فربما كان الأمر خارجًا عن إرادتها، وربما كان نتيجة حتمية للتجربة التي مرت بها، والتي لا يعلم طبيعتها على وجه التحديد. فهي في ظاهرها جلسة تنويم إيحائي، وهذا هو كل ما يعلم عنها.. حتى أن نص الحوار لم يصله بشكل دقيق كما تبين له الآن.

من المؤكد أن شيء ما شرير دار هناك، وأن هذه المسكينة كانت ضحيته بلا ذنب جنته. من المستحيل أن تكون هي السبب حقًا فيما حدث هناك.

مستحيل وألف مستحيل!

تلك الطفلة البريئة، الوديدة كقطة وليدة. لكنه قدّر أنها سوف تشرح له كل شيء، بعد أن تستمع لما قالته وسمعتة وهي تحت تأثير التجربة، فتفهم كل شيء.. ثم تمنحه تفسيرًا مقنعًا لما رآه منها هناك!

لكنه برغم كل شيء، لم يستطع مسح تلك الصورة المفزعة من خياله. كان مؤمنًا بأنه لن ينسى ما حدث مهما طال به العمر.

لن ينسى الدمار التام، الذي أطاح بتلك الفيلا الهادئة، حيث كان مقر (جمعية الباحثين عن شيء ما). مقرًا أصبح - بأثاثه وأجهزته وساكنيه - مجرد كومة من الغبار، في غمضة عين!

كان هو الوحيد على قيد الحياة. باستثناء كومة من العظام تدعى لورا، صار الشك في قرب نهايتها يقينًا. وبالتالي كان الوحيد الذي يمكنه الشهادة بما حدث بدقة. حتى التي كانت هي سبب الفاجعة، لم تكن واعية، ولن تستطيع ذكر كلمة واحدة.

وقرر أنه لن يتكلم. لا يريد لها إيذاء بأي حال، كما أنه من العسير أن يصدق أحدهم روايته لما حدث.

كلا، ولن يخبرها هي حتى بما حدث منها. فالحمد لله على أنها لن تذكر ذلك أبدًا.

وفي قرارة نفسه كان يتساءل كثيرًا.. ما الذي أدى إلى حمايته من الأذى، وخروجه من المأساة سالما على هذا النحو العجيب؟ وقد كان في كبد المكان الذي أصيب فيه آخرون إصابات مميتة. لماذا قررت حمايته هو بالذات، ما الذي دعاها إلى الاهتمام بإنقاذه على هذا النحو، وقد كان من الواضح أن عقلها لم يكن شاهدًا على ما كان منها.. وكأنها كانت (أخرى). فقط لدقائق ثم عادت من جديد.

لم يكن مندهشاً لكونه لم يزل على قيد الحياة، سليماً بلا ذرة تراب على ملابسه، فقد نال من رؤيتها وما تفعل، ما يكفي! فقط كان يتساءل عن السبب..

"افتكرت.. بس مش فاهمة حاجة خالص!"

التفت إليها متلهفًا..

"افتكرتي إيه؟ أخيراً رجعت لك الذاكرة؟!"

هزت رأسها ببطء، نافية..

"افتكرت اللي حصل في الجلسة، وافتكرت كلام الست الشريرة اللي كانت بتتكلم معايا، بس مش فاهمة هي عايزاني أقول لها على إيه، وإيه السر اللي كان نفسها أعترف بيه.. ومين ماريو فيبوناتي دا؟!"

"فيبو...؟!"

"سيبك من كل دا، واضح إنها كانت بتتكلم حد غيري أساسًا، بس الغريب إني كنت بكلمها وأرد عليها، كأني عارفة كل حاجة بكل التفاصيل.."

ثم صمتت قليلاً، قبل أن تقول مفكرة:

"معقول كانت بتكلمني عن ناس من دنيتي القديمة، أيام ما كنت لسه في روما؟ معقول قوي.. بس إيه اللي يهمها في تاريخ حياتي، وهي تعرفني منين أصلاً؟!"

ونظرت إلى عيني سميمر مباشرة..

"سمير.. أنا مش فاكرة إيه اللي حصل في مقر الجمعية بالطبط، بس عندي إحساس إن أنا السبب في اللي حصل دا.. الكلام دا صح ولا غلط؟"

"وبعدين يا ليلي.."

"أنا مش عيلة صغيرة يا سمير، أنا ماعنديش حد أثق فيه غيرك، في الدنيا الغربية دي اللي مش فاهمة هي عايزة مني إيه بالضبط؟ أنا حاسة كأن كل حاجة بتحاربني، زي ما أكون عايشة في مؤامرة كبيرة! واللي بيحصل دا مالوش غير معنى واحد بس، إني فعلا غلظت غلظة كبيرة، بس أنا مش قادرة أفكر أي حاجة خالص، ودا اللي معذبني. أنا مابقيتش واثقة في أي حد غيرك يا سمير، انت واثق فيا؟!"

قال في صدق محايد، خال من أي انفعال:

"طبعًا يا ليلي، ما أظنش حد قرب منك زي، وعرفك على طبيعتك، خصوصًا بعد الحادثة.."

قالت شاردة الذهن..

"فعلاً.. ولا حتى سليم جوزي!"

بهت سمير لهذا التصريح المخيف، وأثر عدم التعليق، فقد كان يفكر ماذا يمكن أن يلحق به إن كان زوجها يستمع إليهما الآن. بكل تأكيد يقدر الرجل على شطب اسمه من سجلات النقابة فورًا، بل ومن سجلات الدنيا كافة! وربما اعتبره الناس كأن لم يكن من الأصل، لو رغب سليم داغر في هذا.

إن الرجل مسالم نقي، لا يهوى استخدام هذه الأساليب الوضعية، التي يتبعها معظم ذوي السلطة في هذا البلد، لكننا نتكلم عن زوجته وحبيبته.. فللكلمة أكثر من مليون معنى بالنسبة له.. ترى بأي شكل سيفهمها سليم؟!

"فعلاً.. ولا حتى سليم جوزي!"

واعترف لنفسه بأن هذا الشعور الجارف بالذنب، وتلك الدورة الطويلة المضنية التي قام بها عقله لدى سماعه العبارة، لم يكن لها من سبب سوى أنه بدأ يميل إليها حقًا، تلك هي الحقيقة!

إنه مرتبط بالفعل بابتنة عمه الحسناء التي طالما تمنّاها، نيرمين. فما الذي يعنيه هذا الشعور المفاجئ، الذي سبّب له انقلابًا في كل حواسه ومشاعره؟ هل سحرته؟!

هذا هو الحل الأقرب للمنطق، والذي يسمح له بأن يفكر في أنثى أخرى سوى حبيبته وخطيبه التي لم ينلها إلا بعد معاناة، والذي يسمح له باختيار زوجة سليم داغر بالذات ليفكر فيها!

ورغمًا عنه خرج بأفكاره إلى الواقع، فلم ينتبه لتلك الضحكة العجيبة الساخرة، التي انطلقت من حلقة، بسبب هذه الفكرة الأخيرة..

"بتضحك على إيه.. لسعت منك خلاص؟!"

"باين كدا! سيبك مني دلوقت وقولي لي، تفتكري إزاي ممكن نوصل لحد يعرفك فعلاً.. عندك فكرة نبدأ البحث منين عن أي معلومة موثوقة تخص حياتك؟"

هزت رأسها نافية بعنف، وكأنها تتمنى انفلات عنقها من منبته، لشدة غيظها. تأمل هو شعرها الثائر، الذي ظل يروح ويأتي مع حركة رأسها العصبية بشكل رائع. فقال بلهجة خرجت رغمًا عنه ناعمة رقيقة..

"عندي فكرة!"

رمقته بعينها الواسعتين، كطفلة لا تصدق أن أباه قد أوفى بوعده حقًا، وأتاها بلعبة طالما تمنّتها. لكنه لم يكذب يفرج شفّيته

للإعلان عن فكرته، حتى انفتح الباب بعنف، وانطلق عبره سليم كالقذيفة نحو زوجته، ينهال علي كفيها ضمًا وتقبيلاً..

"حبيبتي، حبيبتي يا ليلي.. مش ناوية تبطلي شقاوة بقى؟ كل ما أسيبك تروحي مكان لوحدك، ترجعي منه كدا على المستشفى على طول؟!"

تركته يضمها إليه، ويسعد بحقيقة أنها لم تزل على قيد الحياة، وتركت لنفسها المسرة بكل هذا الحنان الحقيقي، واللهفة التي تدل على شدة عشقه لها. واستشعر سمير من نظرات عينها أنها تلوم نفسها لأنها فكرت في زوجها بشكل سلبي للحظة.. فنهض دون أن يحفل بإلقاء السلام، وقدر أنه لن يلتفت إليه أحدهما، إلا أن سليم ناداه قائلاً..

"دكتور، رايح فين؟ عندك مانع تشرب معايا القهوة؟ عايزك تفهمي حالة المسكينة دي، لو مافهاش إزعاج أو عطلة"

قابل سمير لهفته وكرمه، بابتسامة واسعة..

"تحت أمرك يافندم، دي حاجة تسعدني.. بعد إذنك، هاستناك بره.."

والتفت نحو ليلي بهزة رأس..

"حمدلله على سلامتكم يا مدام.. أنا هاستأذن دلوقت، وإن شاء الله ليا قعدة مع الدكتور اللي بيتابعك"

هتفت ليلي..

"بس أنا سليمة أهو يا دكتور، انت عارف إن مفيش حاجه.."

لم تصله بقية عبارتها، بعدما أغلق الباب من خلفه في هدوء، واتجه رأسًا نحو مخرج المبنى، ثم انتقى أحد مقاعد الانتظار، ليلقي ببدنه إليه ثم يشعل سيجارة. ظل ينفث الدخان بعمق، وهو يفكر في حقيقة أنه كان غيبًا مرتين.. مرّة حين فكر في ليلى للحظة من اللحظات، بشكل يختلف عن كونها مريضته. وابتسم بشدة لهذه الخاطرة، كأنها موقف طريف حدث مصادفة مع شخص غريب، فلم يملك حياله سوى الابتسام.

والمرّة الثانية، حين لم يفكر في هذا الحل البسيط منذ البداية. وفي هذه المرّة كان لابتسامته لون مختلف، لون شروق الشمس على جزيرة استوائية نائية، وممتلئة بنخيل جوز الهند..!

"الإنترنت..!"

قالت ليلى الجالسة على ذات المائدة، قبالة الدكتور سمير في ذلك المطعم، وقد وضعت نظارة سوداء عريضة، متشاغلة بتقليب محتويات كوب الأيس كريم أمامها..

"إשמعني!"

قال سمير ببساطة..

"انتي مش مجرد ست عادية، ساعات بتنسي انتي مرات مين، وتنسي دورك الاجتماعي خلال السنين اللي فاتت، المفروض إن العالم كله يعرفك، ومش ذنبك إني لا بتفرج على تليفزيون ولا بتابع جرايد.. يعني أي محرك بحث أكيد هايكون عنده مفاجآت كتير لو بس كتبنا له إسمك!"

"تعرف إن دا السبب الوحيد اللي خلاني أختارك من بين كل الدكاترة النفسيين في اسكندرية؟"

"إني عبقرى؟!"

"لأ! إنك اتعاملت معايا عادي جداً، من غير ماتحسسي إني تمثال أو تابلوه متعلق ع الحيطه!"

وصممت للحظات مفكرة قبل أن تقول..

"يعني تفتكر إني..."

وقطعت عبارتها، قبل أن تكمل في نغمة يسيطر عليها الاستسلام والإرهاق..

"طب انت جربت؟"

"طبعا! بس كل اللي لاقيته شوية كلام فاضي.. تحميل نسخة من كتابك، شوية صور في مناسبات رسمية، مقال ولا اثنين عن نشاطاتك في مجال الخدمة الاجتماعية.. يعني من الآخر، ولا حاجة!"

"أه! وانت عايزني أجرب بنفسي، يمكن الاقي حاجة تعجبك!"

قال مبتسماً..

"لأ مش بالظبط، بس أنا كنت بجرب بإسم ليلي داغر أو ليليان داغر.. متهياي لو جربنا مع إسم ثاني..."

"إسمك مثلاً؟!"

"لأ إسمك انتي يا لمضة، بس قبل ما تتجوزي سليم داغر!"

توقعت ليلي بينما تقرب رأسها من رأس سمير، لتنال مجالاً أوضح للرؤية أمام شاشة الحاسوب، أن نتيجة البحث عن (ليليان فان أورتون) لن تفضي إلى شيء حقيقي، لأنها تعلم أن الجانب الأهم من حياتها بدأ مع اقتران اسمها بداغر. فلم تكن تعتقد أن هناك من اهتم بها قبل ذلك، لدرجة أن يدرج لها أي بيانات على شبكة الإنترنت.. لذلك فإن شعورها بالصدمة حيال نتيجة البحث كان منطقيًا للغاية!

* زواج الملياردير المصري سليم داغر من ليليان فان أورتون بعد قصة.....

* حفل توقيع كتاب ليليان فان أورتون الشهيرة ب.....

* الحكومة السويدية تفتتح القاعة الجديدة بالمتحف الوطني....
تمثال... فان أورتون، ليليان..

* تواصل السلطات البريطانية البحث عن مرتكبي تلك الأفعال..
مقابر.. فان أورتون.. رأس..

* ريتشارد فان أورتون، ليليان.. جار البحث عن.. لندن.. تم نبشها
من قبل بعض ال....

* لمشاهدة صور التمثال الأسطوري.. يعود إلى القرن.. فان
أورتون.. حصرياً على..

لدقائق تجمدا كلاهما أمام الشاشة ذهولاً ودهشة، ثم تبادلًا في
النهاية نظرة تحمل الكثير. ودون كلمة واحدة امتدت أنامل ليلى
لتحيط بالمؤشر وتختار أحد الروابط..

* لمشاهدة صور التمثال الأسطوري.. يعود إلى القرن.. فان
أورتون.. حصرياً على..

وتابع سمبر النظر إلى الشاشة، بينما يستشعر إثارة لا حد لها..

".... ومن ضمن ما تم اكتشافه مؤخراً من آثار نادرة لتلك البلدة
المنكوبة على الساحل الجنوبي لبحر الشمال، ذلك التمثال المعجزة،
الذي احتار في أمره كل من رآه من فنانيين تشكيليين أو علماء
فيزيائيين.. فالتمثال المصنوع بالحجم الطبيعي والذي يعود عمره
التقديري لأكثر من قرنين.. كان يمثل امرأة ترتدي ثوباً حريراً مكشوف
الكتفين، وتتحلى بما يماثل ما اعتاد سكان تلك البلدة ارتدائه من
قلادات أو حلّي بدائية الصنع.. المدهش أن ذلك النوع من الحلّي
المصنوعة من عظام الحيتان، لم يظهر إلا في هذه البقعة النائية من

العالم.. مما يلقي بتساؤلات هامة حول الثوب الحريري الخفيف الذي لا يناسب الطقس شديد البرودة هناك بأي حال.. ولكن هذا ليس كل شيء.. فقد صرح كل من فحص التمثال من خبراء أن الخامة المستخدمة في صنعه لا يمكن أن تكون إلا جليداً معالجاً بحيث لا يذوب تحت أي ظرف!!

وأقر الجميع أن تلك التكنولوجيا ليست متاحة في عصرنا هذا، فضلاً عن زمن صنع التمثال..!

وأضاف الدكتور إدوارد كلارسون أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة كامبريدج، إن لهذا التمثال المدهش، الذي تتكون جزئياته من ذرتي هيدروجين وذرة واحدة من الأوكسجين، فضل عظيم في لفت الأنظار إلى تلك البلدة التي ذهبت عن آخرها، فلم يبق منها أثرًا واحدًا إلا وطمسته الثلوج مع مرور الزمن..

المثير للدهشة أن التمثال قد وجده مستكشف أسترالي بالمصادفة البحتة عقب انتهاء إحدى العواصف القوية، التي تسببت في تغير معالم المنطقة، وأزاحت أطنانًا من الثلوج من فوق بعض أجزائه. فرآه ولم يصدق في البداية أن هذا الشيء لم يختلط بما أحيط به من جليد على مر العصور، فيصير جزءًا من كل هذا.. بل ظل محتفظًا بكيانه للنهاية برغم كل شيء.....

.....

..... وله قاعدة ترتفع لما يزيد عن قدمين، مكتوب عليها بحروف لاتينية:

"هدية السماء.. لك الخلود ولنا السعادة بوجودك بيننا.. نحن نمتن لملاكنا الحارس "ليليان ريتشارد فان أورتون"..."

..... المتحف الوطني السويسري.. القاعة الجديدة.. مؤتمر صحفي..."

قال سمير مندهشاً..

"واضح إن تركيبة الإسم شائعة في أوروبا!"

"الإسم ثلاثي.. غريبة قوي!"

"لأ مش غريب ولا حاجة، انتي تعرفي عندنا في مصر فيه كام ألف واحد اسمه (أحمد عبد الله السيد) أو (محمد على محمد).. آمال هما اخترعوا الأرقام القومية ليه!"

"طب خلينا نجرب دا.."

*ريتشارد فان أورتون، ليليان.. جار البحث عن.. لندن.. تم نشرها

من قبل بعض ال....

"... ويبدو أن العام 1978 أبي إلا أن يبدأ بشكل مختلف لافت للأنظار.. وكان العبء مكثفًا بالنسبة للسلطات الأمنية في المملكة المتحدة، التي تواجه ضغوطًا جمة من قبل كل الجهات المعنية بخصوص قضية نبش المقبرة الأثرية للساحرة الإيطالية "ليليان ريتشارد فان أورتون".. وترجح بعض الأقاويل أن جماعة (عبدة الشيطان) الوليدة هي المسئولة عن هذا العمل الرهيب.. وقد أبدى مسؤول أممي تشككًا يفيد بأن الفاعل ولا بد لص متخصص في جرائم الآثار.. فمن المعروف أنه قد تم عرض مبالغ طائلة من قبل العديد من المتاحف العالمية مقابل الحصول على رأس "ليليان" البالغ من العمر ما يزيد عن مائتي عام.. وقد صرح البعض أن هذا الرأس قد وجد ضمن بعض الآثار المتخلفة عن قرية بدائية تم ردمها تحت الجليد لقرون، وهو الشيء الوحيد الذي أبقاها سالمة بعيدًا عن التحلل طيلة

تلك الفترة الطويلة.. كانت هناك بعض الأشياء الأخرى القليلة، تم وضعها في المتحف الوطني السويسري، من بينها تمثال شديد الغرابة منقوش عليه اسم الفتاة، وهو ما دل على هويتها. عندما تمت مقارنة الاسم ببعض المخطوطات القديمة التي وجدت هناك، والتي يتضح منها أن الفتاة كانت تمارس السحر وأنها ارتحلت من روما هربًا من حكم بالإعدام صادر من القصر مباشرة!

وكان الرأس المقطوع هو الشيء الوحيد الذي ظل باقيًا منها، مما يرجح أن بقية الجثة تم حرقها كما كان متبعًا في تلك الحقبة.. والمدهش أن السطو على المقبرة تم في الليلة التي تلت الإعلان عن افتتاحها مباشرة.....

وكانت الأساطير ترجح.. تسلل.. نبش المقبرة....

التحديث الأخير تم بتاريخ 16 / 7 / 2001 لمزيد من الروابط المتعلقة
ب....."

قال سمير بينما يشعل سيجارة، وقد اقتحم ذهنه مشهد نسف مقر الجمعية، بشكل عنيف مما أصابه برجفة..

"تفكرني الموضوع دا له أي علاقة بيكي؟ احنا كدا بنضيع وقتنا ع
الفاضي..."

"استنى!"

منعته قبل أن يغلق نافذة البحث، ثم قالت متأملة المارة من خلف نافذة المكتب العريضة، وقد اعترها الشroud..

"دا أنا بفكر في حاجة تانية خالص، بس عشان خاطري آخر مرة، دور لي على الصور المتعلقة بالإسم دا!"

تحركت أصابعه فوق المؤشر، لتتجه صوب زر البحث في الصور وهو يتساءل عما قد يجده..

"تعالى يا ليلى، دي صور التمثال اللي في المتحف الوطني في
سويسرا.."

"شبهى قوي؟!"

تجمد سمير أمام السؤال المباشر، فلم ينطق. وتوجهت ليلى نحو الحاسوب، ثم قامت بتحميل الصورة، كانت بعيدة غير واضحة المعالم.. إلا أن هذا لم يحرك في نفسها الشك تجاه الحقيقة الجديدة التي سكتها.. إن هذا التمثال لها، وإن تلك الساحرة التي يتحدثون عنها هي في الحقيقة ليلى ذاتها!

في لهجة مندهشة تشوبها الريبة، قال سمير ببطء وكأنه ينصت لأفكارها العجيبة..

"بلاش عبط يا ليلى، ماتخليش الأفكار الخايبة دي تملأ دماغك.."

كانت خائفة، لكن لهجتها أنت مخيفة رغما عنها..

"انت مش فاهم.. نسيت الكوابيس اللي حكيتها لك، ونسيت اللي حصل في مقر الجمعية من كام يوم، بس أنا افكرت.. أنا هي!"

"إزاي بس! دي حكاية فات عليها بيحي....."

قاطعته وهي تضرب بكفها سطح المكتب..

"ماتسألنيش! كل اللي أنا متأكدة منه هو اللي قلته لك، احنا هانكلم المستشفى نسأل على اللي اسمها لورا دي. لو فيه حد يعرف عني حاجة أكيد يبقى هي.. لازم أفهم مين اللي عمل كدا!"

"مين اللي عمل إيه يا مجنوننة انتي؟!"

"مين رجّعني تاني من الموت!"

"لورا، تعيشي انتي!"

قالها سمير بلهجة بائسة. بعد أن وضع سماعة الهاتف.. ثم نزع سترته وفك ربطة عنقه، وتوجه نحو النافذة ليفتحها عن آخرها. وقد اعتراه شعور مقبض، وكأن جدران المكان تطبق على روحه..

"مالك، الخبر زعلك ولا إيه؟ على أي حال كان متوقع.."

استند سمير بكفيه إلى حافة النافذة، وكأنه يعاني دوارًا شديدًا، ثم إلتفت نحو ليلى مرهقًا..

"أنا معرفهاش عشان أزعل ولا أفرح، عموما ربنا يرحمها.. انتي بجد مصدقة اللي قلتيه لي من شوية دا، لدرجة إنك صدقتي نفسك وخلص بقيتي ساحرة شريرة، ومش فارق معاكي البنيت اللي ماتت؟"

صمتت ليلى للحظات، قبل أن تقول بلهجة هادئة لا تتناسب مع ما يجيش به صدرها من انفعالات شتى..

"دي مش مجرد بنت، دي دكتورة شريرة.. عملت حاجة في عقلي، ودخلتني تجربة معرفش الغرض منها إيه"

قال سمير بلهفة الغريق، الذي لا يصدق أنه قد وجد قشة النجاة أخيرًا..

"طب ما هي أكيد التجربة دي هي السبب في الأفكار الغريبة اللي بتيجي لك.. مش جايز تكون زرعت في عقلك معلومات وأفكار حوالين الساحرة دي؟"

تأملته بنظرة مشفقة..

"والكوايبس اللي بشوفها كل ليلة، دي كمان أترجعي للتجربة؟!"

قال بلهجة لم تنجح في إقناعه هو ذاته..

"طب ما يمكن انتي من نسل الساحرة دي مثلاً؟ ودا السبب في الكوايبس اللي بتشوفها! انتي نسيتي الكلام عن الوجدان الجمعي والنظريات دي؟!"

"دا كل اللي عقلك وصلك له يا دكتور؟! كان نفسي يكون عندك حق، بس دا ما يفسرش تطابق الأسامي، ولا الشكل، ولا كل الحقايق الواضحة زي الشمس دي.."

قال سمير ثائراً..

"مفيش تطابق في الشكل، انتي بتبصي على تمثال شفاف أهبل بقى له بييجي 200 سنة؟ انتي اللي عايزة تصدقي إنك هي، زي ما تكوني شبطي في لعبة! إيه الجنان دا؟!"

صمتت ليلي للحظات وقد غلبتها الدموع. فسالت على وجنتها في حرارة.. بالنهاية انفجرت في البكاء وهي تهتف:

"انت بتزق لي فيه دلوقت؟ الله!"

وأدارت وجهها سريعاً قبل أن تنتزع حقيبتها من فوق المكتب وتتوجه نحو الباب..

"استني يا ليلي، ححك عليا.. رايحة فين بس؟"

قالها سمير بتعاطف، وقد تملكه شعور قاس بالندم، فتوقفت ليلي وهي تفرك عينها دون رد مواصلة البكاء دون أن تنظر إليه. توجه إليها بنظرة معتذرة، ومد كفه إلى وجنتها كي يمسخ دموعها..

"بس خلاص كفاية وحياتك.. اهدي بقى"

أصابتها لهجته الحنونة في مقتل، فأجهشت بالبكاء مرة أخرى،
وألقت برأسها على كتفه.. ضمها إليه بقوة. وربت رأسها وهو يهيمس..

"هووو! وبعدين بقى؟ طب كفاية عشان خاطري، ماشي؟"

استسلمت لحضنه الدافئ، وقالت بصوت متهرج بسبب دموعها..

"انت الوحيد اللي ممكن تحس بيا.. أنا كل يوم بموت وأنا مش
عارفة أنا مين، ومين الناس اللي أنا عايشة معاهم دول، مش عارفة
مين اللي بيحكوا لي عنها، تركيبة غريبة مالهاش مسكة.. ولا فاهمة أنا
كنت بنت ناس أغنيا ولا بنت شعبية من حارة.. بتعامل وبتكلم بطريقة
غريبة.. كل كلامهم شكله متلفق.. أنا تعبت.. عارف يعني إيه تبقى
لوحدك في الدنيا كلها؟ حتى إسمك مش فاكره.. أنا عندي الموت
أهون"

أبعدها عنه بضعة سنتيمترات، كي يتسنى لها تأمل ملامحها
الجميلة، التي زادها الحزن جمالا..

"فيه بنوتة زي القمرزيك تقول الكلام الوحش دا؟"

التفت منهم الأعين لدقيقة على الأقل، تبادلوا خلالها الكثير من
الرسائل الصامتة.. قالت في النهاية بصوت خافت، وكأنها تعجز عن
كسر هذه الحالة الفريدة من الهدوء والسلام..

"أنا عايزة أنزل"

ابتعدت عنه ببطء وسارت نحو الباب..

"رايحة فين بس.. ما بلاش تنزلي وانتي في الحالة دي"

"ماتقلقش، مش هاروح بعيد.. ساعة وراجعة لك تاني"

وصفقت من خلفها الباب، تاركة سمير بين أنياب مخاوفه. يتخبط بين حيرته مما يراه بعقله، وما تمليه عليه عواطفه..

وقام مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم ليعد فنجاناً من القهوة، ويبحث عن بعض الكتب القديمة في مكتبته التي ورثها عن أبيه وجدّه، عله يجد فيها ما يعينه على حل هذا الغموض. قلب الكثير من الصفحات الصفراء المهترئة، وأزاح أطناناً من الغبار دون جدوى.

في النهاية وضع قدحه الفارغ جانباً، وهو يحاول جاهداً التوصل إلى معنى مناسب لكل هذا..

والكتاب الذي نشرته؟ وكل من يعرفونها؟ وكل تاريخها المعلن قبل وبعد الزواج من رجل الأعمال النجم سليم داغر؟!

كيف يمكن لشخصية واحدة لها اسم وشكل ثابت، أن تحيا حياتين منفصلتين تمام الانفصال، على المستويين، الزمني والجغرافي.. كيف يمكن أن يفصل ما بين ليليان فان أورتون التي يعرفها وحده، وليليان فان أورتون التي يعرفها الجميع، منتي عام؟!

هل هي مصادفة.. هل هناك من هو مسؤول عن هذا الخلط بشكل عمدي؟!

لا يمكن أن يكون الأمر مجرد مصادفة بريئة، إن مشهد نسف مقر الجمعية لا يفارق مخيلته، ولن يفعل ولو ظل حياً لقرن من الزمان. مشهد ليلي وهي تمهض من مقعدها ببطء، كأنها آلة تختبر تروسها وجنازيرها للمرة الأولى، ثم تلقي بخوذتها على امتداد ذراعها، وعلى وجهها ارتسم تعبير مخيف.. تعبير ينم عن السعي للقتل والتدمير!

لم يستطع إغماض جفنيه عنها، وهي تحرك شفيتها بعبارات صامتة جافة، رافعة ذراعها إلى أعلى. ولم يصدق عندما رأى الشرارات

الكهربية تنمو من كل أنحاء جسدها وتحتشد عند كفيها المرفوعتين نحو السقف، مكونة كرة مضيئة مخيفة الشكل، ظلت تنمو ببطء، حتى.....

"واحدة ست عايزة تقابلك يا دكتور.."

انتفض سمير فرعاً، عندما قاطع أفكاره طوخي التومرجي بهذا الشكل المفاجئ..

"ماتخبط ع الباب يا عم الحاج، خضيتي!"

"خبطت مرتين يا دكتور، اللي واخذ عقلك! أقول لها إيه؟"

"دخلها واعمل لي كوباية قهوة.. سكر مضبوط"

"يا سلام! ما أنا عارف إن قهوتك مضبوطة!"

"لأ يا شيخ! أمال أنا ليه كل مرة بشرها زيادة؟"

"عشان انت اللي بتعملها لنفسك! مش ناوي تتجوز بقى عشان

ترتاح وتريحني منك؟ على الأقل تلاقي حد غيري يعمل لك قهوتك!"

"اطمن يا عم طوخي من الناحية دي، نيرمين خطيبي مايتدخلش

المطبخ غير مرة كل سنة، عشان تشوف التورتاية قبل المعازيم!"

هز طوخي رأسه أسفاً وقارع كفيه وهو يغادر متمتماً..

"جيل ما يعلم به إلا ربنا!"

ابتسم سمير ساخراً، وهو يهئ نفسه لمقابلة تلك الضيفة، حين أثار

صوت يعرفه جيداً..

"أتأخرت عليك..؟!"

رفع رأسه تجاه الوافدة، وتأملها للحظات قبل أن يهتف مصعوقاً..

"ليلي!! عملي إيه في نفسك يخرّب بيت سنينك، دا أنا
ماعرفتكيش!"

"ولا حاجة! لسه شايف إن مفيش تطابق في الشكل؟!"

نهض سمير، ودار حولها يتأملها متعجبًا..

"انتي أكيد اتجننتي! كل الماكياج دا عشان تثبتي وهم في دماغك؟
فكرتيني بالتحول اللي بييجي لمرضى الفصام في الأفلام العربي النص
كم!"

دارت ليلي دول نفسها في ثوبها الحريري مكشوف الكتفين،
ضاحكة.. وهي تهز رأسها ذي الشعر الطويل الفاحم المجعد..

"كل دا ماكياج إيه بس! أنا ماعملتش حاجة غير إني اشتريت
الفستان دا، بيني وبينك مش مرتاحة فيه عشان عريان زيادة عن
اللزوم، بس الموديل حلو! وعديت على الكوافير، رسم لي جفوني ورفّع
لي حواجبي شوية، بس.. أه، وجبت من عنده الباروكة دي!"

ثم كفت فجأة عن الدوران، وواجهته عاقدة حاجبها بشكل أخافه
بشدة..

"إيه رأيك كدا؟!"

سعى إليها متوسلاً..

"ليلي.. أنا عارف انتي حاسة بإيه دلوقت، بس انتي كدا هاتعذبي
نفسك أكثر.. معلش، اسمعي كلامي. تعالي اقعدني هنا وخدي القرص
دا، وهاترجعي لحالتك الطبيعية تاني"

"انت ليه مش عايز تفهم يا دكتور؟ أنا فعلا رجعت لطبيعتي!"

قال مصدومًا..

"انتي افكرتي كل حاجة خلاص. وعرفتي إيه اللي حصل؟"

"مش بالضرورة.. هايحصل ماتقلقش، كل حاجة بتاخذ وقتها، المهم دلوقت إنني عرفت أنا مين، فاضل بس أعرف إيه اللي جابني هنا!"
انهار على مقعده قائلاً فيما يشبه التمتمة..

"طب وانتي ناوية على إيه دلوقت؟"

"أكيد يعني مش هاجري ورا الناس في الشارع، أحدف عليهم صواعق ولعنات! هاحتاج بس أجمع بقية الأجزاء، عشان أشوف الصورة النهائية.."

"وحياتك هنا، وبيتك، وجوزك؟"

قالت بسخرية مريرة..

"جوزي! تقصد سليم داغر؟!"

"هو انتي متجوزة حد غيره؟!"

"برضه هاعرف إجابة السؤال دا بالوقت.. أما بالنسبة لسليم بقى، ربنا يتولاه! أكيد مش هايسيبه لوحده.."

وتوجهت دامعة نحو سمير، الذي نهض ليحتويها بين ذراعيه وقد شله الموقف. قالت وهي تجهش بالبكاء..

"أنا ماكنش ليا حد غير سليم وانت، ما اعرفش الناس دول، ولا أعرف أمي اللي ماتت في الحادثة ولا ولادي.. مفيش ولا وش فاكراه، حتى اللي قرئت عنهم في الكتاب، لا أعرفهم ولا أنا مصدقة الكتاب أصلاً.. دي ماكانتش حياتي من الأول، وما أظنش إنني هاوحش حد فيها!"

قال سمير مرتباً عليها في شفقة..

"انتي عندك دلوقت حياتين كل واحدة في اتجاه، ليه تختاري الاتجاه اللي كله شقا ووحدة؟ انتي هنا مع جوزك.. وأنا موجود.. وعندك منار صاحبتك اللي بتحبك، هناك ليكي مين تروحي له؟!"

أفلتت من بين ذراعيه بنعومة، وتوجهت نحو النافذة، ولم تجف دموعها..

"ليا قدر مستنيني، مش هاعرف أهرب منه، ولا أضحك عليه.."

"القدر مالوش دخل بقراراتنا الشخصية، ماتروحيش للضياع برجليكي، خليكي هنا معانا، دا أحسن لك.. لا أنا ولا انتي ولا أي حد يعرف إيه اللي حصل لك بالطبط، بس النتيجة إنك هنا دلوقت.. مش يمكن القدر عايزك تبتدي بداية جديدة؟ ليه مافكرتيش فيها بالشكل دا؟"

التفتت نحوه بنظرة ملؤها الأمل، ثم قالت بعد برهة من الصمت..

"تفتكرهاينفع دا؟"

قال مناشداً..

"إيه المانع بس؟ انتي مش فاكرة أي حاجة من ماضيكي، لا البعيد ولا القريب.. ماتقدريش تأكدي أو تنفي، أنني فيهم حياتك فعلاً، وأنهي المزيفة.. ما يمكن هي دي لحظتك الحقيقية.. إنك تقفي في مفترق الطريقتين وتختاري، فكري قبل ما تضيعي كل حاجة، صدقيني مش ناس كتيرة اللي جت لها فرصة زي دي"

صمتت لدقائق، وإمتدت يدها لتنتزع الجمة من فوق رأسها وقد سكنت روحها أخيراً. وقررت التغاضي عن ماضيها الذي لا تعلمه.. وكأن لكلمات سمير على روحها تأثيراً أقوى من السحر..

"الظاهر إن معاك حق، لازم أنسى الماضي اللي أنا أصلاً ناسياه، وأبعد عنه بكل الشر اللي ممكن يكون ماليه، خصوصاً واني لسه صغيرة.. مش عارفة إزاي فكرت في فكرة زي دي؟! معقول أنا ساحرة شريرة وكل الهبل دا؟!"

قالتها ليلي ضاحكة كطفلة صغيرة، عرفت أن مدرس الحساب قد اختطفته عصابة وغادرت البلاد. ثم جلسة متهددة بقوة وقد أمتها وجنتاها من شدة اتساع بسمتها، وابتلع سميريقه بصعوبة، وهو يعجز عن إزاحة كل التفاصيل المتعلقة بأخر تواجد له في مقر جمعية الباحثين عن شيء ما عن ذهنه، وقال محاولاً الابتسام..

"شفتي بقي؟!"

هزت رأسها عدة مرات، قبل تختفي البسمة من فوق شفيتها فجأة، وتقول بلهجة بانسة..

"شفت أه! شفت إنك طيب أكثر من اللازم، وكمان بتنسى بسرعة.. على أي حال أنا هاعمل اللي عليا وأحاول أنفض لكل الأفكار دي، وأعيش طبيعي ولا كأن فيه حاجة.. ادعي لي!"

ونهدت بشكل فجائي عازمة على الرحيل..

"على فين..؟"

قالت وهي تحك رأسها بقوة كأنها تشعر بدوار..

"حاسة إنني مش تمام، متهيألي دوش دا في ونوم تمان تسع ساعات ممكن يظبط المسائل.. يالا سلام!"

"هنا يا عم محمود.."

انعطف السائق العجوز، ليمر عبر البوابة الحديدية الكبيرة، ثم يتجه يساراً ويمر بصف من السيارات الصغيرة المترابطة. تجاوزها إلى نهاية الممر العريض الممتد بعرض المدخل الرئيس لذلك المبنى الكبير، ثنائى الطوابق، ليوقف السيارة، سامحاً لسليم بالنزول.

كان المكان المضاء بالعديد من الكشافات البيضاء المتناثرة على واجهة المبنى، وحول السور المرتفع من جهة البوابة الرئيسية، يشبه في مجمله مبنى إدارياً لشركة ما.. فلم يكن يشي مظهره بأي حال بأنه مخصص للسكن، حتى لو لم تكن هنا أو هناك أي لافتة، لا خارج البوابة ولا على واجهة المبنى الأمامية. لذلك بالنظر إلى النوافذ الزجاجية العريضة المعتمة، وكشك الحراسة الخالي تماماً إلا من مقعد خشبي فوقه قبعة، بجانب كل تلك التفاصيل الصغيرة، التي تنم عن هجر المكان في هذه الساعة، وبالإضافة لكون الوقت قد جاوز منتصف الليل بدقائق، ومن جهة أخرى إلى عدد السيارات الواقفة بالخارج تنتظر، والتي لم تزل مصابيح بعضها مضاءة بالفعل. نجد أن التباين كان واضحاً جلياً مما يعطينا فكرة عن سبب القشعريرة التي تجتاح بدن العجوز محمود بلا سبب واضح، كلما تطلبت الظروف أن يقل سيده إلى هذا المكان.

"استناك يا بيه؟"

"لأ، سيب لي العربية وخذ تاكسي روح انت، يمكن أتأخر هنا شوية، مش عارف.."

كان الأمر بمثابة قرار بالإفراج عن الرجل، الذي لم يكن يكره في حياته إلا شيئين، أحدهما هو القدوم إلى هنا ليلاً! وهو الذي لم يذكر أنه رأى هذا المكان بالتهمار قط.. على أي حال فهو لم يكن في موضع يسمح له بالمناقشة.

دون كلمة، أوقف محرك السيارة وأخرج المفتاح مناولاً إياه إلى سليم، ثم استدار عائداً عبر البوابة سيراً على قدميه، يحلم بأن يجد سيارة أجرة خالية بأقصى سرعة.

وقف سليم للحظات يسوى ثيابه، ويتأكد من ابتعاد محمود بقدر كاف عنه، قبل أن يتحرك مسرعاً في دائرة كبيرة حول المبنى، متجهاً نحو بوابته الخلفية. بثبات وثقة تجاوز البوابة الصغيرة المفتوحة، وعبر الطريق الضيق إلى الجهة المقابلة، قبل أن يدلف إلى تلك البناية الصغيرة المتهالكة، مدثراً بعتمة الليل. وألقى نظرة سريعة على معصمه الأيسر، وهو يدفع ذلك الباب الخشبي ذي الصرير الخافت.

"دايمًا مواعيدك مثالية يا باشا!"

اتخذ سليم مجلسه حول تلك المائدة الطويلة المترية، التي التف حولها ثلاثة رجال وامرأة، وقال فاتحاً أزرار سترته، ومحياً الجلوس بهزة رأس..

"أخبارك إيه دلوقت، لسه تعبانة؟"

هزت المرأة رأسها دون أن تجيب، في حين قال أحد الرجال..

"ماتقلقش على لورا يا باشا، دي تربية عفاريت! المهم بس قل لها تتلم شوية وماتظهرش تاني، أحسن مراتك تشوفها وتبقى مصيبة.. كفاية اللي حصل لغاية دلوقت"

قال سليم وهو يصب لنفسه بعض الشراب، ويجيل بصره بينهم متسائلاً، فدفعت لورا له بكأسها بينما رفض الآخرون..

"ماتقلقش، زمانها اتعلمت الدرس كويس.."

وأتم عبارته رائيًا إليها بطرف عينه..

".. وعرفت هي بتلعب مع مين!"

زفرت لورا بحنق، وقالت بينما تجرع شرابها دفعة واحدة..

"أنا أعلم جيدًا مع من أتعامل، ok! وأنت لن تهمني بالإهمال في التعامل معها، بعد كل ما بذلنا من جهد في سبيل استعادتها.. But you know that, Lily like a daughter of me.. وأنا لا أحب أن تتعامل معي ابنتي بهذه الطريقة!"

رمقها سليم، لا يصدق إن كانت جادة أم تمزح، قبل أن يطلق ضحكة ساخرة وهو يقترب منها هامسًا..

"مش عايزك تاخدي كل حاجة قفش كدا! وبعدين هو أنا كنت بصرف الملايين دي كلها، واستنى كل الوقت دا.. عشان في الآخر تجيبي لي baby! انتي مجنونة ولا إيه يا لورا! لو على الأطفال يا روجي فيه طرق تانية خالص أسهل من كدا بكتير!"

لوت شفقتها معبرة عن سخف مقولته، بينما قال أحد الجلوس في اهتمام وهو يداعب شعره الطويل..

"قل لنا.. إيه الأخبار عندك دلوقت؟"

فهم سليم أن محدثه يشير إلى ليلى، فقال..

"لحد دلوقت مفيش جديد، من ساعة المحاولة اللي عملتها الهانم..- وأشار ناحية لورا - ..عشان نستخلص من عقلها المعلومة.. مش عايز أقرب منها دلوقت أحسن التجربة كلها تبوظ ونبدأ من الأول تاني"

قال أحدهم في توتر، وهو يفرط في تحريك أصابع يديه ويشبكهيم معًا..

"انت فعلا خلصت كل الشغل اللي وراك، وحليت كل الألغاز.. سيبك بقى من الوقت والفلوس اللي صرفتها، المهم إنك نجحت في اللي مافيش حد على مر التاريخ قدر يحققه. وخالص ما بقاش فاضل غير خطوة واحدة بس، آخر تكة، صفحة من ألف صفحة! عندك استعداد تضيع وقت تاني أكثر من كدا؟ لاحظ إنها مش زينا.. وماعندهاش الاستثناء اللي انت إديته لنا.. يعني يكون أحسن لو خلصنا الموضوع في السريع و..."

أخرسته نظرة نارية من سليم الذي قال بصرامة شديدة..

"بقول لك إيه! ماتنساش بس إنك بتتكلم عن مراتي، اللي عملت كل اللي أنا عملته دا عشان ترجع لي. الحاجة الوحيدة اللي مخلياني مكمل بس، خوفا عليها لا تتنذني أو تتأخذ مني تاني.."

قاطعها أحد الرجال محاولاً تهدئة الموقف، بينما مد الأول يده نحو زجاجة الشراب عابثًا..

"باشا! لاحظ إن مفيش حد فينا يعرف إيه اللي ها يحصل لو انت قدرت توصل للسر.. يعني كلنا خايفين على ليليان زيك بالضبط لأن هي اللي في إيدها تكمل من بعد اللي انت عملته، ومفيش حد هايقبل إنها

تعرض لأي خطر.. احنا اشتغلنا سوا فترة طويلة قوي، ووصلنا للي احنا فيه دلوقت، وكنا عارفين إن هاتيحي علينا لحظة نقف عندها لما اختصاصنا ينتهي، ولو انت مصر تعتبر موضوع الطلسم الأخير دا من ضمن (المسائل العائلية) بالنسبة لك، خلاص! ورينا همتك. احنا حاولنا مرتين، وأديك شفت المرة الثانية رغم فشلها، بس ماتنكرش إنها حركت ليليان.. هاتفتكر واحدة واحدة"

نجحت محاولته في تهدئة الأجواء، والانعطاف بالحوار نحو نقطة أخرى، مما جعل ذو الشعر الطويل يقول بيهتمام..

"عرفت حاجة عن موضوع كسر المراقبة اللي كانت بتعمله كل شوية دا؟"

"أمال فاكركي نايم على وداني؟! كانت بتروح لدكتور نفساني وماكنتش عايزاني أعرف.. دا نوع من الحماية بدائي شوية كانت بتعرف تستخدمه زمان، شكله بقى يطلع لا إرادياً كل ما تكون رايحة له. عشان كدا خليتهم يبعثوا له إعلان الجمعية، لأنها ماكانتش هاتظمن غير لو هو حضر معاها الجلسات بنفسه"

هز الرجل رأسه متفهماً، فتساءل سليم..

"طب أنا عرفت إنها بتشوف كوابيس لها علاقة بماضيها القديم. شافت تفاصيل وناس وحاجات كدا لها علاقة بليليان الأصلية.. طبعا هي مش فاكرة ولا فاهمة الكلام دا معناه إيه، بس يا ترى في أي احتمال تفتكر أي تفاصيل لها علاقة بماضيها هي خلال الخمسة وعشرين سنة اللي فاتوا؟"

قالت لورا وهي تقطب شاعرة بالملل..

"للمرة الألف، لا أعتقد. أعلم أن أوان هذا الكلام قد فات ولكنني كنت ومازلت أميل إلى استخدام الأسلوب الأبسط، أن تتولى تربيتها بشكل طبيعي حتى تكبر، ثم...."

قاطعها سليم بعصبية..

"أه، وبعدين أقول لها أنا كنت أبوكي اللي رباكي السنين الي فاتت، إيه رأيك تتجوزيني بقى ما دام كبرتى واحلويتى كدا؟! أنا عارف إن فرق السن بين وبينها مش باين إنه كبير، بس عمرها ما كانت هاترضى ولاها تفكر أصلا تتجوزني لو كنت ربيتها بنفسى.. هو الحل الوحيد اللي حصل، إننا نسيها تكبر، وبعدين نمسح لها الذاكرة خالص، فتبقى مستعدة تقبل أي معلومة! أقول لها أنا جوزك بقى، أنا خالتك!! ما دام مالهاش غيري كان لازم تصدقني.. الخوف بس لا تفتكر أي حاجة لها علاقة بالفترة اللي قبل مسح الذاكرة، كل حاجة تبوظ واحنا مش ناقصين!"

"For the umpteenth time, this can't be happening" .. أنت لم تمح ذاكرتها باستخدام السحر، كما انتويت، والسحر يمكن إبطاله.. لكن هذا الإشعاع قد قام بمحو كل شيء مكتسب، ولم يُبق إلا على ذاكرتها الوراثية، والجزء المتعلق بذاكرة الخلايا.. أتمنى أن يكون هذا كافيًا لتطمئن!"

قال ببرود وهو ينهض..

"وأنا كمان بتمنى!"

نهض الجميع خلفه وقد فهموا أن الاجتماع قد انتهى. وقال ذو الشعر الطويل وهو يلتقط معطفه..

"بالنسبة للكوايبس اللي هي بتشوفها، مفيش منها قلق.. يمكن دي الطريقة اللي هاتخليها ترجع لك.. هانستى وهانشوف"

أشار الرجل المتوتر دومًا إلى سليم وقال..

"أنا عايزك يا باشا في كلمة قبل ما تمشي.."

انتجى الرجلان الأخران ركنًا، وتبادلا حديثًا هامسًا، بينما حيّت لورا الجميع، وانصرفت من باب غير الذي دخل سليم من خلاله..

"بص! هي مشكلة كدا بس ماتقلقش، حليناها.."

عقد سليم ذراعيه وقال بصبر..

"ايه اللي حصل؟"

"واحد من الصحفيين اللي بيعجبوا يحشروا مناخيرهم في أي حوار، حاول زي اللي سبقوه يعمل عنك وعن نشأتك تقرير كدا.. انت عارف النظام دا! تقريبًا كان عايز ينشر سيرتك الذاتية في الجرنال بتاعهم، بس أنا اتعاملت معاه يعني"

"إمتى وفين الكلام دا، ونشرولا لأ؟"

"في نيويورك من يومين، أنا عرفت بعد ما نشر أول حلقة فعلاً، بس أنا اهتميت بالموضوع بنفسي، واتاكدت إن مفيش ولا واحد فاكركلمة من اللي قراها، ولا حد سأل سؤال واحد حوالين اللي اتكتب!"

قابله سليم بنظرات ثابتة تقدر على الإيذاء، فقال..

"ما انت عارف إنها مش أول مرة، وشفت بنفسك أنا بتصرف إزاي في المواقف دي.. ولا إيه؟"

"أنا عارف إنك قدها عشان أنا اللي علمتك بنفسي.. وافتكرك، الدم دايمًا هو آخر حل تفكر فيه، يعني في أضيق الحدود الممكنة"

"فيه حاجة كمان، قبل ما أنسى.."

واتجه إلى المائدة الكبيرة، كي يفتح حقيبته الجلدية ويتناول منها مغلفًا كبيرًا يضم عدة أوراق..

"اللي انت طلبته أهو.. من دلوقت كل ممتلكاتك، شركات وأصول ثابتة وفلوس سايلة،، هنا في مصر وفي العالم كله، بقت رسمي ملك للسيدة ليليان فان أورتون، بعقود سليمة زي الجنيه الذهب"

تناول سليم المغلف من الرجل دون كلمة، ولم ينصرف وكأنه يشعر بأن الحديث لم ينته بعد..

"متيألي يكون أحسن لو قلت لي سبب الطلب دا، أنا مارضيتش اسألك قبل ما أنفذ أحسن تفهمني غلط"

"الأهم من العقود دي هو التوكيل اللي عملته لي ليليان، عشان أعرف أمشي كل حاجة لغاية ما تيجي اللحظة المناسبة وافاجئها.. بخصوص السبب، معلش.. أفكر لسه ما جاش وقته"

وربت كتف الرجل مودعًا وشاكرًا إياه، قبل أن يترك الجميع ويخرج من حيث دخل. كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، عند اللحظة التي أدار فيها محرك سيارته الكبيرة، ودار بها متجهًا نحو البوابة، التي يبدو أنها لا تغلق على الإطلاق، في سبيله للعودة إلى الدار.

كان الطريق إلى بيته قصيرًا لذا فقد فضل ألا يقود بسرعة كبيرة كعادته، خاصة وأنه لم يكن يتعجل العودة. وجد الهواء رطبًا مُندىً ومغلفًا بلمسة محببة من البرودة، ففتح النافذة المقابلة له على الجانب البعيد، جزئيًا، ليسمح له بالدخول. ثم أدار المذياع على إذاعة ما لم يهتم بما تبثه.. فقط كان يريد أن يستمع بمؤانسة المذياع، التي لا يدركها كل الناس. شعور غريب ينتابه من وقت لآخر، أن يفعل ذلك

دون هدف وكأن صوت الشوشرة الموجية الذي يصاحب الأحاديث أو الأغنيات، هو الهدف في حد ذاته.

للحظة وبلا سبب شعر بأن الحياة صارت أجمل، وتمنى لو أن ليلى كانت معه هنا والآن، قبل أن يضيع ذلك التأثير السحري المؤقت للأشياء.. ويزوب تحت حرارة شمس النهار التي لا تستطيع جمع الأحرف (ش.ا.ع.ر.ي.ة) في كلمة واحدة.. ولم تكد صورة ليلى أن تفتح ذهنه حتى شعر بأنه يرغب في رؤيتها حالاً، مما جعل قدمه تزيد من ضغطها على دواسة الوقود بشكل تلقائي.. وانطلق في شوارع الإسكندرية ينعم بأقصى حد من المتعة والسعادة، تقدر أعصابه وخلاياه على النقل والتعامل معه..

كانت في هذه اللحظة تبكي بالفعل.. وهي التي ما بكت من قبل قط.. تبكي رعباً، وقهراً، وألماً.

لكنها لم تبك ندماً..

وعلى الأرض كادت أن تفرغ محتويات أمعائها من هول الموقف.. لكنها منعت نفسها بكثير من العسر لكي لا تثير غضب سيدها..

"لقد حان الوقت.."

التفتت إلى جوارها لترى اليد الممسكة بالكأس الكريستالية المفعمة بدمائها.. كانت تقترب منها..

من شفيتها!.....!

لم تحاول إبداء أي اعتراض، عندما لامست حافة الكأس شفيتها بالفعل.. وبدأت اليد المعروقة في إمالة الكأس نحوها..

"رشفة واحدة وينتهي الأمر.. فلأحاول أن....."

شعرت بأن الجرعة بأكملها قد سُكبت سكبًا بداخل حلقها، مما جعلها تشرق وتدخل في نوبة عنيفة من السعال المشوب باشمزاز. وتصاعدت أحماضها المعوية، مهددة بالمساهمة في زيادة الفوضى الضاربة في المكان.

تخلت اليد المخليبية عن شعرها، وتركتها تسقط أرضًا بين الوحل والدماء، لتتمكن من تلقي الصدمة على مهل.. وظلت تلملم أطراف ثوبها الذي استحال خرقة بالية، وتحاول الإعتدال جالسة، حتى كفت عن السعال.. وبدأت تلاحظ أن كل شيء قد هدأ من حولها أخيرًا.

توقفت الرياح الثائرة.. وكفت الأمطار الغزيرة عن الانهمار.. وهدأت الرمال، فلم تعد تضربها بقسوة. بل بدأت في الاستقرار والاستكانة.. حتى أن الدماء لم تعد تتفجر من تحت قدميها. ولاحظت أن الأرض مهتمة بامتصاص ذلك المزيج المخيف، من الوحل المشرب بحمرة وردية بأقصى سرعة..

وببطء لاحظت أن تغيرًا غريبًا يطرأ عليها.. كان هناك ذلك الضغط الزائد على أذنيها، والذي ظل يتزايد بشكل تصاعدي حتى أحست وكأن روحها تنتزع انتزاعًا عبر حلقها الذي جف كالحطب.. وثقل كالجبل يجثم على صدرها، مهددًا بتحويل أضلعها إلى فتات.. واستمر الموقف لنصف دقيقة تقريبًا حتى بلغت مداها وأيقنت من الهلاك.

ورغمًا عنها راحت الدموع تتفجر من مقلتيها كالأنهار، بفعل الضغط الشديد، قبل أن ينتهي الأمر بسلام في ظرف لحظة، وكأن شيئًا لم يكن..

وببطء شديد حاولت رفع رأسها لأعلى، لم تلاحظ وجود أي ممن كانوا يلتفون حولها منذ لحظات.. نهضت على قدميها بساقين كالعجين

وتلفتت حولها في كل اتجاه، بالفعل كان الجمع الرهيب من حولها قد انفض أخيرًا..

ما سر ذلك التغير الذي طرأ عليها؟ تحس بأنها قد اختلفت تمامًا..

إنها تتذكر كل شيء..

ويبدو أن اللحظة المنتظرة قد حانت أخيرًا، كافة التفاصيل صارت موجودة وحاضرة في ذهنها كأوضح ما يكون.. لقد اكتشفت أنها صارت تعرف أخيرًا من هي، وما ينتظرها.

كان هذا رائعًا، و..

وتلفتت حولها من جديد.. لقد صارت وحيدة.. وحيدة جدًّا..

في هذا المكان الموحش المظلم.. دون أن تملك أدنى فكرة عن كيفية العودة منه..

ما العمل..؟!!

لاحظت أن لون السماء الأسود قد صار أزرق، وظل يخف شيئًا فشيئًا حتى انتهى به الحال إلى الأصفر الذهبي كلون الشمس في منتصف النهار، وكأن هناك من أدار عقارب الساعة بسرعة كبيرة جدًّا.. ومن حولها وجدت الأرض الجافة قد استحالت خشبًا لامعًا، تكسوه سجادة كبيرة جدًّا تشبه تلك الموجودة بغرفة نومها..

إنها بالفعل بداخل غرفة نومها!!

ما هذا الجنون؟

أليس هذا كابوسًا.. والغرض منه أن تخاف؟!!

لم تسمع من قبل عن كوابيس تعيد أبطالها إلى أماكنهم الأصلية بعد إنتهاء العرض، وربما خصصت لهم عدة سيارات تمر بكل المحافظات كذلك!

لا أحد يعود من الكابوس إلا عند الاستيقاظ، إنها أبسط قاعدة متعارف عليها في هذا الموضوع..

ولكن يبدو أنها استيقظت بالفعل وهذا هو الأكثر جنوناً من كل الكوابيس.

فجأة اكتشفت أنها واقفة في منتصف حجرة نومها، بقميصها الأبيض الذي نامت به.. ومن خلف الستائر المزاحة. كانت الشمس تبدو في قمة تألقها.. وقد أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة ظهراً..

هل قامت من مرقدتها بينما هي لم تزل نائمة، وسارت حتى توقفت هنا، في نفس اللحظة التي انتهي فيها الكابوس المخيف..!؟

جائز، لكن هذا لا يفسر آثار البلل العالقة بباطن قدميها الدقيقتين، والتي تولت السجادة الفاخرة مهمة امتصاصها شيئاً فشيئاً.

لكن هذا لم يعد يهم الآن، أيًا كان ما حدث، فالنتيجة أنها الآن أصبحت تتذكر.. الآن تمتلك هويتها.. وتعرف ما لها وما عليها.. الآن لم تعد هناك تلك القطة الوليدة التي كانت قبل أن تدخل إلى فراشها. وتقلّصت ملامحها دهشة وسخرية من حالها وما كانت عليه خلال الأيام الماضية، ثم هزت رأسها استمتاعاً وفخراً بإنجازها الخارق..

علمت أن الوقت صار ضيقاً، لا يحتمل المزيد من التأخير. ألقّت نظرة سريعة على المرأة الكبيرة بالمكان. لاحظت أن بجانب شفيتها الرقيقتين وحول جفنيها السفليين تواجدت خطوط لم تكن موجودة

من قبل.. وللحظة، ارتعبت من نظرة عينها بالمرأة، قبل أن تهدأ
وتستكين، وتبتسم في استئناس بوجهها القديم، الحقيقي.
لكنها لم تتوقف كثيرًا أمام اللحظة.. هناك الكثير مما ينبغي عمله،
فورًا..

والأهم من ذلك.. هناك من يحاول إفساد هذا العمل، ولا بد من
إيقافه بأي ثمن..

وألقت نظرة أخرى سريعة على صورتها بالمرأة، لكنها لم ترتعب هذه
المرّة، بالرغم من الطيف الذي بدا لها بين نقاط الضوء المتناثر بريقها
على السطح الفضي اللامع..

كان ذات الكيان الذي طالما زاركوايبسها، قبل أن تتذكر أنها عرفته
وتعاملت معه منذ زمن بعيد، بعيد..

وللحظات ظلت متسمرة في وقفها أمام الطيف، قبل أن تهز رأسها
إيجابًا، وكأنها تلقت منه رسالة صامتة..

وفي النهاية التفتت نحو فراشها العريض، حيث يرقد زوجها غافياً..
وابتسمت بسخرية ممزوجة بالشفقة، قبل أن تتجه نحوه عاقدة
العزم على الانتهاء من كل الأمور العالقة خلال ساعات بأقصى تقدير.

الفصل الثالث

الكشف

بكي كثيرًا جدًا كالأطفال.

كان في حالة رهيبة من الذهول وعدم التصديق، ليس فقط لأنه عشقها إلى حد الجنون، ولا لأنه تمنّاها كما لم يتمن أحدًا ولا شيئًا قط.

ولكن لأنه لم يتصوّر أن تأتي عليه اللحظة التي يشهد فيها مصرعها، وبهذه الطريقة المهينة المفجعة. كان يتخيلها معنًى مجردًا.. رمز يعلو فوق قوانين الحياة والموت، وما يُلم ببقية العباد من ظروف تقليدية. ولدقائق بدت كالقرون؛ ظل يركض ويركض بين الثلوج متجهًا نحو كوخهما الثلجي، وكأن الجحيم يطارده. كان يبكي ويركض ويصرخ هاتفًا باسمها وكأن له ألف رئة!

وبمنتهي اللهفة، وكأنه ذاهب للقائها شخصيًا، توجه نحو الكوخ، وهو يلقي بعيدًا بالخنجر، الذي لا يدري كيف تمكن من مباغتة الحارس وصرعه باستخدامه، ولا كيف فر من بينهم دون أن يلحظ أحدهم أي شيء.

بدا في تحركه الآلي وكأن لديه مهمة محدّدة لا تحتل التأجيل للحظة واحدة.. لكنه لم يكن يدري من أمرها شيئًا.

كان يتصرف وكأن لكل طرف من أطرافه، ولكل عضو في جسده إرادة خاصة، وفكر مستقل.. ويبدو أنهم جميعًا قد اتفقوا على أمر ما،

دون أن يحفل أحدهم بإبلاغه. وفي لحظة واحدة كان قد استطاع كسر القفل الحديدي الموضوع فوق صندوق معشوقته الفقيدة، وبهفته الجنونية قام بإخراج كل ما به من كتب ومخطوطات، باحثاً عن ورقة بعينها، كانت الفتاة قد أمرته بالبحث عنها واستخدامها إن نال منها مكروه أو ماتت..

وكان يستبعد احتمال اضطرابه لاستخدام تلك الورقة لأقصى حد، لكنه الآن كان على أتم الاستعداد لحرق أوروبا بأسرها إن لم يستطع إيجاد ورقته المنشودة.

ها هي، لم تخذله الفتاة حتى بعد موتها..

وبحرقة شديدة ظلت دموعه تهمر بلا قوة لديه كي يمنعها، لكنه رغم ذلك لم يتوقف لحظة واحدة عن العمل. راح يجمع كل شيء بسرعة.. الكتب.. الأوراق المتناثرة.. ملابسها.. أدوات زينتها، وكل ما يمت لها بصلة في قلب الكوخ.. ويضعهم في قلب دائرة واسعة حفر حدودها فوق جليد الأرضية الصلب بنصل كان هناك، ثم وضع في داخل إطارها بعضاً من رماد كانت تركته له في كيس قماشى مغلق.. وألقى بالكيس ذاته في قلب الدائرة، ووقف بدوره في منتصفها، بعدها أمسك بالورقة في يده وبدأ التلاوة بصوت عال.

قطع عليه عمله صوت هدير غريب، فأجفل للحظة، ولم يستطع تبين حقيقة الصوت. أهو صوت حوافر جياذ تقترب منه مسرعة، أم أنها عاصفة جليدية توشك على الهبوب؟

تأمل الجليد من خلال فرجة الكوخ للحظة، ومن بين دموعه الغزيرة خطر له أن يذهب ليلقي على جثمانها نظرة أخيرة.. لكنه ما لبث أن عاد له صوابه، فنفض رأسه بقوة وقال لنفسه بصوت متهدج..

"لا تخف، لقد وعدتُ بأننا سوف نراها ثانية، وبأسرع مما نتخيل..
لا تخف، هي قالت هذا!"

للحظة، خيلَ إليه أنه يلوح بطرف عينه. طيف شخص ذو معطف طويل، يقف في مواجهته، وقد عقد يديه أمامه، فتجاهل وجوده لثوان مواصلاً ما يفعله، لكن هاجساً دفعه، عند نقطة ما، إلى رفع عينيه جهة ذلك الطيف.. بدا له مألوفاً لولا ثيابه العجيبة، لكنه، وقبل أن يقرر إن كان يعرفه أم لا، كان قد تبخّر، كأن لم يكن. لم يجفل الفتى، ولم يتردد في استكمال ما يفعله، فقد كان متوقفاً لكل ما يمكن أن يطرأ خلال الدقائق القادمة، من خوارق وعجائب.. ولم يكن في مزاج يسمح له بالتدقيق في التفاصيل.

ألقي نظرة أخرى مفعمة بالكراهية نحو البلدة، قبل أن يوجّه بصره نحو الورقة، ويواصل التلاوة، ببطاء ثقيل، غير مبال بصوت الهدير المخيف، الذي راح يرتفع شيئاً فشيئاً..

وحينما ارتفعت العاصفة لأقصى مداها، وقبل أن تهبط، لتحيل البلدة بكل من فيها، إلى غبار؛ كانت هناك في قلب الكوخ عاصفة أخرى تندلع. قد تكون أقل مساحة من التي تدوّي بالخارج، لكنها لا تقل عنها عنفاً، بل ربما كانت أعنف.

أطياف لا مرئية ولا خفية، انبثقت فجأة من العدم، وراحت تدور في سرعة جنونية، محيططة بحافة الدائرة وبكل ما تحتويه، صانعة إحصاراً نارياً، ابتلع الفتى ومقتنيات حبيبته الراحلة؛ استمر ثوان بدت كالقرون بالنسبة للفتى. ولكن ما إن انتهت لحظات الجنون، حتى وجد الفتى أنه قد عاد وحيداً مع كتبه وأدواته وما جمّع.

ونظر حوله ليتأكد من أنه لم يعد هناك.. لا في الكوخ ولا في البلدة، ولا في القارة بأسرها.

حين رمق الفتى الوجود من حوله متأملاً، بدا وكأنه قد انتقل إلى عالم آخر يختلف تمامًا عن العالم الذي أتى منه.. فبعد أن اعتادت عيناه مشاهد الجليد، ورقع الغابات لا نهائية المساحة.. وجد نفسه وسط مساحة شاسعة منبسطة من الرمال، لا يحدها أي شيء من كل الجهات.

وبخوف، نظر إلى الورقة بين أصابعه. ليجد ألسنة من لهب قد اندلعت في حوافها بشكل مفاجئ، سارحة إلى الداخل، فيتأكد من نقطة الوصول التي اختارها كنهاية لرحلته. لقد وجد أنه اختار دونما قصد، نقطة تقع في ذلك البلد الحار على الجانب الآخر من البحر.. اسمها مصر.

مصر....!!؟

يا للكارثة، يبدو أنه في سبيله للموت جوعًا وظمئًا.. لم يكن يعرف أن مصر عبارة عن حفنة من الرمال، ولو عرف لفضّل انتظار الموت ببنادق الجنود، عن المكوث هنا لدقيقة واحدة!

من بين جفنيه شبه المطبقين ظل يدور برأسه في كل اتجاه، بحثًا عن أي أثر للحياة.. لم يحاول إزاحة أنهار العرق المتصببة من جبينه، فلم يكن به من العزم ما يسمح له بتحريك إصبعه. وفهم أنه سوف يعاني كثيرًا قبل أن تتاح له الفرصة للحياة من جديد، خاصة وأن الورقة قد احترقت أثناء الرحلة، ولم يكن هناك وقت لصنع نسخة أخرى منها.

حاول أن يحرك قدميه في أي اتجاه، فأكتشف أنه تقريبًا قد شل. يبدو أنه أحد أعراض السفر بواسطة هذه الطريقة بالغة الخطورة. وكان يعرف أن هذا الشلل لن يدوم لأكثر من دقائق.. ولكن مع توالي الصدمات فوق رأسه علي هذا النحو المفاجئ، بدءًا بهجوم جنود الملك

فكتور.. ومقتل حبيبته.. ومرورًا باختفائه من أوروبا على هذا النحو المدهش.. ثم ذلك اللون الأصفر المقيت الذي يغطي عينيه مع كل حركة لرأسه في أي اتجاه، والذي بدأ في التسبب في شعوره بالعمى.. فضلاً عن الظمأ والجفاف للذان أخذاً يغزوان خلاياه بلا رفق وبسرعة كبيرة للغاية، فتسبباً في تيبس حلقه وشفتيه، حتى صارتا مغطاتان بالقشور البيضاء كالأسمك.

مع كل هذا، لم يعد هناك مفر من هذا الدوار الذي انتابه للحظات، قبل أن يسقط منكفئاً على وجه بين كتبه ورمال الصحراء..

كان يعلم أنه لم يستفق بعد من غفوته، كأنه كان واعياً بلا وعي!

ومن بين كتل الضباب من حوله، بدأ لسبب ما في استعادة بعض تفاصيل التاريخ الذي ربطه بهذه الفتاة. ومرّ بلحظة أن رآها أول مرة، وتجاوزها إلى لحظة بداية القصة التي حضر أول مشاهدتها بنفسه.. ثم تجاوز كل ذلك، وتجاوز بدايته هو شخصياً في الحياة، إلى البداية الحقيقية للرواية..

تلك التي لم يشهدها حتمًا.. لكنها ما حدث، وما رواه كل من كان يكبره عمراً بأكثر من عقد من الزمن، والتي لم تتسبب فيها ليليان.. بل هي البداية التي تسببت في وجود ليليان.

كانت بلدة هادئة تقع في جزيرة ساردينيا، لم تر خلال تاريخها الطويل ساحرات من هذا النوع، ولم تسمع من قبل عن طقوس حرق الساحرات أو دفنهن أحياء فضلاً عن رأي العين. لذا كانت صدمة الجميع لما آل إليه حال الفتاة الفقيرة سوزان زوجة المزارع البسيط روبرتو سيرخيو، كبيرة بما يتناسب مع الموقف وأكثر.

قيل إن سيرخيو تزوج من قبل ولم ينجب من زوجته الأولى، فمن أين أتت سوزان بحملها إذن، وبعد أكثر من تسعة أعوام من الزواج..؟

دعك من كونها فائقة الحسن، برغم زحفها المتواصل نحو العقد الرابع، وأن نصف رجال البلدة يحلمون بها، والنصف الآخر يسعى إليها. لابد أن الرجل الثري الأيرلندي الذي سكن البلدة منذ أشهر قليلة هو السبب..

السادة المتأنقين، الذين يتعاملون مع السكان المحليين وكأنهم عبيد أو خدم لديهم، فيدهسون كل ما يعترض طريقهم بلا مبالاة إلا برغباتهم الخاصة، أنت تعرفهم بالتأكيد. كان السيد جوناثان ريتشارد فان أورتون، أو كما أطلق عليه أهل البلدة (السير) يسكن قصرًا كبيرًا في أطراف البلدة. رجل حاد الملامح على الرغم من وسامته، صارم يتحدث الإيطالية بإتقان، ولا يبالي بتقاليد البلدة المحافظة.. كان يثير مرآة خوف الأطفال، ويفجر بكاء الرضع بلا سبب منطقي، هكذا لم تقبل امرأة بالعمل في قصره، لأن معظم النساء في القرية كن يرضعن صغارًا. عدا سوزان التي لم ترزق بأطفال.

هل ضاجعها السير ذات ليلة. فنالت منه ما لم تتل من المسكين زوجها؟

كثر الحديث بالطبع وانتشرت الأقاويل، ثم استيقظ الجميع ذات نهار ليكتشفوا رحيل السير، وكأنه قد أتم مهمته، فلم يعد لوجوده معنى.

هم يذكرون بدقة متى بدأ ذلك التغير يطرأ على شخصية المرأة الريفية البسيطة المحبة، ويذكرون متى بدأت تلك النظرة المخيفة التي تقذف بالشرر تسكن مقلتها الناعستين.. ومتى بدأت دجاجات جارثها في الوفاة الواحدة تلو الأخرى إثر مرورها من أمام باب بيتهم.. ومتى بدأ

الأطفال الرضع ينتحبون ويصرخون حتى الازرقاق، إذا ما وقفت أمهاتهم للحظة مع سوزان..

وبدأ حديث (المرأة التي حملت من الشيطان) ينتشر، وتهامسوا حول الوباء الذي ينتظر ليفتك بكل أهل الأرض، والذي تسببت به تلك المرأة المجرمة. حتى أن الكيل قد فاض بالمسكين زوجها، الذي لم يحتمل كل هذا، ليجدوه في أحد الصباحات الباكرة، وقد أغمد نصلاً في حلقه.

وتقرّر إعدام سوزان وقتل طفلها، لكنهم إذ اجتمعوا وذهبوا إليها لتنفيد ما اتفقوا عليه، وجدوها قد ماتت وهي تضع مولودتها. كانت الطفلة طبيعية تمامًا، وكانت بالفعل رائعة. تتمتع بعينين سوداويتين جميلتين، تفاعل بهما الخلق، وقرروا تبني الطفلة المسكينة التي لم تجن شيئاً.

وأطلقوا عليها إسم ليليان.. ليليان فان أورتون.

نشأت ليليان بين أطفال القرية الفقراء، فلم تستشعر إفتقاراً لأم ولا أب، لأن كل أب كان أبوها وكل أم كانت أمها.. ومن بين الأطفال كان هو..

ماريو فيبوناشي.

لعبا كثيراً وتشاجرا كثيراً، وتخطيا سوياً مرحلة الطفولة إلى فترة المراهقة الأولى. أحبها كثيراً مثلما أحبها الجميع وأكثر، لكنها كانت لا تلتفت إليه ولا إلى غيره من شباب القرية.. فتخيل أنها تنتظر فرصة تحمل لها زوجاً من فتیان المدن البعيدة، الأثرياء. كانا في منتصف العقد الثاني تقريباً عندما صارحها للمرة الأولى بأحلامه وتخيلاته..

"لا يا ماريو، ليس هذا هو السبب"

"ما السبب إذن في عدم إهتمامك بي.. ألا أروق لك؟!"

"هل لو أخبرتك بالسبب، تحتفظ به سرًا؟"

قال الفتى متوترًا..

"بالتأكيد..!"

مالته على أذنه هامسة في خطورة..

"إنني متزوجة بالفعل، لهذا لا ينبغي لي الارتباط بك أو بغيرك...!"

وتركته وهي تبسّم، فأجزم محنقًا بأن هذا المزاح الثقيل كفيلا بتقريب نهايتها..

فتح عينيه مستعدًا لضربة قاتلة من ضربات شمس الظهيرة، لكنه مندهشًا ألقى نفسه ممددًا على فراش خشن في مستوى الأرض، وعلى مسافة مترين منه كانت هناك شمعة كبيرة مشتعلة، ومغروسة في الرمال، وقد اعتلته خيمة ممزقة. ومن حوله وجد كل كتبه وأدواته بالإضافة لقربة صغيرة مملوءة بالماء.

أقام رأسه ببطء، ألقى بنظرة وجلة إلى خارج الخيمة فتيين أن الوقت ليلاً، نهض بصعوبة وسار إلى الخارج، لتلقيه نسائم الليل الباردات بالتحية.

لم يكن هناك أي مخلوق بالجوار، ترى من قام بهذا العمل، وأتى به إلى هنا؟

وما المدة التي قضها نائمًا، وهل سيظل هنا للأبد أم ماذا..

لم يكن يشعر بالجوع ولا بالخوف من الوحدة في قلب الصحراء، ولا حتى بالقلق من شمس النهار الملتهبة، في وجود هذه الخيمة. لكنه كان قلقًا من نفاذ المياه بالقرية الصغيرة، ومن جوعه إن طال به الأمد هنا وحيدًا. لكن القلق لم يكن عظيمًا، لاعتقاده بأن من وضعه هنا قادمًا إليه في الصباح لا محالة..

ماذا نفعل الآن إذن؟

لم تكن به حاجة للعودة إلى النوم، وكانت الشمعة كبيرة بما يكفي، ففكر في أن يقلّب قليلاً في الكتب التي حملها معه ليقرر بأيها يبدأ. فقد حمل معه فيما حمل قرارًا بأن يعرف ما عرفته ليليان وما قرأته وما خطت بيمينها. كان على يقين من أنه إن أراد استعادتها، فإن هذا الطريق هو الأقرب.. سوف يتعلم، وسوف يتصل بأولئك، وسوف يسألهم عنها.

لم يكن قرارًا لحظيًا، بل كان هدفًا نما في داخله وتشعب على الفور، حتى تمكن منه، ولقد بدأ في السعي إليه على الفور..

أتى النهار ولم يبرح مكانه أمام ذلك الكتاب الكبير الثقيل، كان مفتونًا بكل هذا العلم، وقد صارت المعرفة هدفًا آخر في حد ذاته بالنسبة له. وتصور أنه لو ترك وحده لمدة ألف عام لظل منكبًا على الأوراق، ينهل منها بلا كلل.

وارتفعت الشمس إلى كبد السماء، ولم يأت أحد حتى اللحظة. لم يقلق، بل على العكس تمامًا.. كان سعيدًا بخلوته فرحًا بما عرف.

وقام إلى الخارج لإجراء تجربة صغيرة قرأ عنها، تنفعه في البحث عن الغذاء. كان الوقت لم يزل نهارًا، لكنه لم يجد ضيرًا من إشعال النار

من أجل التجربة، فلم تكن الطريقة تحتم أن يتم التنفيذ ليلاً. وكما تعلم، أشعل النار بلا حاجة للبحث عن الحطب، فلم يندهش من قدرته على إتيان ذلك. وكأن الأمر لا يعدو مجرد مسألة حسابية بسيطة قام بإجرائها مستنداً إلى قواعد ثابتة متعارف عليها، فلا عجب من أن تكون النتيجة كما كان يبغى.

وبحسب ما قرأ، راح يتلو بعض العبارات حول النار.. ثم دخل ليزوي بالداخل حيث الظل، في انتظار ما قد تسفر عنه التجربة. وظل يقرأ حتى مغرب الشمس، عندما قاطع تركيزه للمرة الأولى صوت دخيل.

خرج متوجساً ليتبين الأمر، فهاله ما رأى. وجد هناك حول النار خروفاً أسود صغيراً، بدا من امتداد آثار قوائمه في الصحراء، ومن لهائه المتواصل، أنه قد قطع مسافة لا بأس بها قبل أن يستقر هنا. وبفرحة لا تضاهيها فرحة جرى الفتى إلى قلب الخيمة، ووضع للخروف بعض الماء في إناء خزفي مترب كان هناك.. وتركه يلعب قليلاً حول الخيمة قبل أن يحين موعد العشاء.

عام كامل مر عليه منذ انتقل إلى هنا...!

دورة شمسية، لم يقابل خلالها بشرياً واحداً، لكنه لم يكن في حاجة إلى البشر بعد الآن. طوال هذه الفترة، لم يفارق الخيمة، ولم يحاول أن يسعى نحو العمران، حيث الناس تحيا، وحيث الماء الحقيقي الذي يجري أو يخرج من باطن الأرض، وليس ذلك الذي يتولد في قربته الصغيرة تلقائياً؛ كلما قل منسوبه فيها، عاد كما كان، وامتلات من جديد!

دورة شمسية كاملة، قضاها في قراءة ما معه من كتب، ومحاولة جمع أكبر قدر من العلم. ولقد تعلّم الكثير حقًا، ليس فقط فيما يخص مواجهته لمشكلات المعيشة، بل إن الأمر تطور معه إلى بعد آخر، أشمل وأكثر اتساعًا.

لقد تعلم العربية كأهلها، دون أن ينطق منها كلمة، وتعلم كيف يصنع ثيابه وكيف يضيء خيمته، وكيف يعالج نفسه من البرد والحمى ولدغات الأفاعي.. وتحرك منتشياً إلى خارج الخيمة ليشاهد ما صنع.

فعلى مدى مئتي متر تقريباً من كل جهة حول الخيمة، كانت الخضرة تكسو كل شيء. فلقد زرع، وحصد، وأنشأ مخزناً للغلال في واحته الجميلة الصغيرة، وبنى مسكناً لحيواناته ودواجنه. لقد صنع جنة صغيرة على أرض لا يزال لا يعرف موقعها بالنسبة لهذا البلد الذي يحيا على أرضه!

عام كامل لم يقابل خلاله مخلوق ناطق واحد، حتى أنه كان يخشى على نفسه من الصمم، لولا أن أصوات الخراف الحادة كانت تأتيه بين الحين والحين، لتطمئنه على سلامة أذنيه.

وكان إذا قرأ، يقرأ أحياناً بصوت مرتفع، كأنه بهذا يؤنس وحدته، برغم أنه لا يفقه ما يقرأ عادةً، ولا يستوعب حرفاً، إن كان صوته عاليًا في التلاوة، لذا كان يضطر لإعادة ما قرأ مرة أخرى بلا صوت في وقت لاحق.

كان سعيداً مبتسماً دائماً، يعلم تمام العلم أن لديه هدفاً، ويعلم أن لديه من القدرات ما يسمح له بالمحاولة.. ولكن كان ينقصه معرفة بداية الطريق.

وخلال ذلك العام لم ينس ليليان لحظة واحدة.. في كل حرف يمر ببصره، كان يذكرها وكأنه يقرأ ليتعلم كيف يستعيدها.

في كل لقيمة تدخل جوفه كان يذكرها، وكأنه يتقوت بالقليل من الطعام، فقط الذي يسمح له بالبقاء حيًا، لكي يواصل البحث عنها. كانت في عينيه هي الدنيا وما فيها برغم أنها لم تعد تنتمي إليها.. إلا أن هذا لم يكن يشكل له معضلة ما.. كان يعتبر الأمر مجرد فترة استثنائية.. وقت مستقطع.. هدنة قصيرة، لن تلبث إلا أن تنقضي سريعًا، ويستعيدها مرة أخرى، مهما طال الأمد.. ومهما كلفه الأمر.

ولم ينس كيف تمناها طيلة حياته، وكيف لم يسعه الفرح بها وبوجودها بجواره أكثر من شهر واحد فقط. لذلك كان يلجأ طيلة أوقات استراحته من تعلم السحر إلى شيئين لا ثالث لهما: إما النوم، فيحلم بها.. وإما السهر ليفكر فيها، ويتذكر كل تفاصيلها.. ويحلم بها أيضًا.

وتذكر - فيما تذكر - كيف بدأت ليلي تصبح خطرًا حقيقيًا على أهل البلدة، وكيف أنها حينما بلغت السادسة عشرة من عمرها، بدأت تصرفاتها المجنونة تتسم بالسفور والتحدي والعلنية، وكأنها لم تعد تخشى لومًا ولا سلطة ولا عقابًا، ولم يعد يمثل لها أي شيء، أي قيمة تذكر.

وكيف بدأت البلدة التي تولت تربيتها منذ طفولتها، تتخلى عن نظرتها لها كطفلة بريئة يتيمة، تربت بين بناتها وأبنائها، إلى تلك الشيطانة الدموية الحسنة.

وكما سمع منهم، كيف كانوا يتحدثون عن زوجة الشيطان، قبل وفاة أمها سوزان، عاد الحديث يتردد مرة أخرى عن ابنة الشيطان.. وتصاعدت الكراهية في نفوس أهل البلدة تجاه الفتاة، كل أهل البلدة، حتى كل من كان ينجذب إليها من فتیان سذج، ومن ضمنهم هو.

كانت تجربة قاسية، علمت الجميع أن الحب المطلق قد ينقلب بسهولة إلى كراهية مطلقة، فقط إن تواجد عامل مساعد قوي، وكان العامل المساعد هنا هو الخوف.. والخوف كالعدد السالب، من شأنه أي يقلب أي شعور إلى نقيضه، فور ما يستوطن الأفئدة.

وبقدر ما أحيا ماريو، كرهها، ولم يعد يطبق لها ذكراً، لم يصل الأمر به حد أن يتمنى قتلها بالتأكيد، لذلك كان من أشد المؤيدين لهذا القرار الوسطي الذي يكفل لهم الخلاص، ويكفل لضمائرهم الراحة بشكل ما: طردها من البلدة.

هي لن تعدم بكل تأكيد وسيلة للمعيشة خارج هذه البلدة، كما أن هذا سوف يخفف عن كاهله عبء التفكير في مصيرها، أو الخوف منها أو عليها.. وهكذا خرجت ليليان فان أورتون من القرية التي ولدت ونشأت بها، مطرودة منفية.

لم تُبدِ عنادًا أو مقاومة تجاه قرار أهل البلدة الجماعي، لم تحاول إرهابهم أو حتى إقناعهم بالعدول عن القرار.

بل إن الأمر بدا وكأنه مستحبًا لها، وكأنها تنتويه منذ فترة، فخرجت بلا ضوضاء.. ولكن على وعد صامت بعودة قريبة.. كل منهم شعر بهذا في أعماقه بشكل ما.

طالت غيبة ليليان عن البلدة ثلاثون شهرًا..

ثم عادت ليلة عيد الميلاد لتحتفل معهم، وكأن شيئًا لم يكن.

قابلها في الطريق عائداً إلى بيته، مهم بأكل لقمة كانت معه، وكان الشارح خاليًا أو يكاد، فلم يصدق رؤيتها.. كانت بنفس هيتها وكأنها لم تغب عنهم ليلة واحدة. فقط بدت متربة إلى حد ما، وكانت تحمل على

كتفها حقيبة متسخة من الخيش، فبدت أقرب إلى المتسولين.. عرف بسهولة أنها جائعة منذ أيام لكنها كانت تخجل من طلب الطعام.

قسم ماريو شطيرة لحم مقدد كانت بين أصابعه، ومنحها نصفها دون أن يأكل النصف الآخر..

"أين كنت طيلة تلك الفترة. ولماذا عدت بعد ما حدث؟"

"هل تحزنك عودتي؟.. يمكنني الرحيل إن كان الأمر..."

"لا تكوني غيبية، لقد افتقدت تواجدك كثيراً.. تواجدك القديم! لا أصدق أنك هنا والآن. وأننا من جديد نتحدث، مثلما كنا نفعل قديماً، قبل أن تقومي بما فعلت!"

لاحظ أنها التهمت نصف شطيرتها في قضة واحدة، وقد اعتلى وجهها تعبيرٌ أثار شفقتة وعطفه نحوها، فقدم إليها النصف الآخر.. قبلته بعد لحظة من التردد..

"أنا لم أفعل، أنتم جميعاً تعلمون من كانت أمي وماذا فعلت.. ولم يكن لي أي ذنب فيما حدث، بل إنه الميراث الملعون الذي لم أختره راغبة. لقد كان الأمر خارجاً عن إرادتي، وبدلاً من أن تعتبروني مريضة مسكينة، حكمت عليّ بالنفي من بلدي.. لقد عولجت مما ألمّ بي، ولم أكن أعرف إلى أين يمكنني الذهاب. بعد أن مرّ بي أكثر من عامين أسعى في الأرض باحثة عن من يستطيع مساعدتي.. لم أكن أعرف إلى أين أذهب.. أنا خائفة من رد فعلهم عند رؤيتي.. ماذا تراهم يفعلون؟!"

كانت أقصر منه ببوصتين، لذا كان منظور رؤيته لوجهها الملائكي البريء الذي اتسخ بالأتربة، ووجنتها المنتفخة بالطعام، ونظرتها التي يمتزج فيها الخوف بالحزن بالظلم، من خلال مقلتيها الدامعتين، اللتين ترمقانه ناظرتين لأعلى في توسل مفتقد للأمل؛ مفعول السّحر.

"لا تخافي.. أنا هنا معك، ولسوف أخبر الجميع بما أخبرتني، ولن يحدث أي شيء.. سيء.. مرة أخرى!"

كان مضمون عبارته مفهوماً لها، برغم سخف تعبيره. تفاضت هي عن هذا بينما تتأمل اتساع عينيه في غياب عن الواقع، وفهمت ما يعتريه حيالها من مشاعر وأفكار.

كان على حالته تلك من البلاهة والحزن، حين تقدم فضمها إليه باكيًا، وبدا أشبه بطفل يحاول التعبير عما بداخله بأقل عدد ممكن من الكلمات التي تعلمها لتوه، وهو يعتصرها في صدره بمزيج من ندم وأسف وخوف وشديد توق..

"سنكون معًا.. ولن.. لن.. بعد الآن!"

جلسا سويًا على الرصيف بين الجليد المتساقط من السماء، وذلك الذي يكسو الأرض. كان الوقت منتصف الليل تقريبًا والشارع قد خلا من المارة تمامًا، وقد صار الطقس باردًا بشكل متوحش، لكن أي منهما لم يكن يفكر في الاحتماء بجدران تعزله عن الآخر. واقتربت لتجلس ملاصقة له كالكقطة، طامعة في مزيد من الدفء، فأحاط كتفها بذراعه في حركة لا شعورية، واكتفيا هانئين بتلك الشطيرة الصغيرة، غير عابئين بما يمكن أن يوجد خلف الأبواب من فطائر محللة أو ديوك رومية.

وعلى الرغم من أنه لم يضع في فمه لقيمة من هذه الشطيرة، ولا من غيرها منذ الصباح، إلا أن شعوره بالشبع كان أغلب من شعورها به.

وأخرجت من حقيبتها الكتانية زجاجة، بها شراب أحمر شفاف..
كانت فرحة للغاية.

"النبيد، النبيد.. لا شيء يقهر هذا البرد إلا الكحول"

قالت باسمة..

"ليس نبيدًا، بل هو شراب سحري، كأنه آت من الجنة، أعطاني
إياه ذلك اللورد الذي عالجني"

"لورد؟!"

"القس! لقد عالجني القس من اللعنة، ومنحني هذه الزجاجة،
وسمح لي بتذوق ما بها.. إنه شراب للأحبة، مذاقه أحلى من العسل.
نصحني بأن أعود إلى بلدي، وأستسمح أهلي، وأشرح لهم الموقف..
وقال لي إن هذا الشراب لا يستحقه إلا شخص أحبك وصدقك. ثم
أمرني أن أقتسمه مع أول شاب من البلدة يصدقني ويحاول مساعدتي،
لأنه سوف يصير زوجي ذات يوم.. هل تعلم من تمنيت أن يكون أول من
أقابل من أهل البلدة جميعًا، وأول من يسامحني على ما فعلت؟"

تناول الفتى كفيها، ولثمه في وله، ثم اختطف منها الزجاجة وأزاح
غطائها، وأقامها على فمه حتى أتى على نصف ما بها في جرعة واحدة..

"مما صنع هذا الشراب..؟!"

"هل راق لك..؟"

رمق الزجاجة مذهولاً..

"إنه رائع!"

"قال إنه مصنوع من العنب والعسل، وشيء آخر لم يخبرني به،
حتى لا أجرب صنعه بنفسه!"

"ولماذا..؟!"

"لأنه يخشى بالطبع أن أستخدم تلك الوصفة (عمّال على بطّال)..!"

"وصفة..؟؟"

"بالتأكيد! إنها وصفة للحب.. ألا تحبني؟"

تأملها للحظات في هيام قبل أن يهمس..

"بل أنا مفتون بك تمامًا، أدرك هذا وأحبه وأفخر به!"

قالها ثم أطلق ضحكة صاحبة معدومة الإتيان..

"اخفض من صوتك، سوف ينتبه الناس لوجودنا بهذه الطريقة!"

"هل معك المزيد من هذا الشراب العجيب؟"

"لست بحاجة إلى المزيد منه، إن مفعوله سوف يستمر إلى الأبد.

ولكن لدي أشياء أخرى ستحبها كثيرًا، هل تأتي معي لرؤيتها؟"

"ألن تبقي؟!"

"لا، لقد فكرت قليلاً، وتوصلت إلى حقيقة أنهم سوف يقتلونني إذا

ما رأوني بلا تفكير. يجب أن نرحل إلى مكان أكثر أمنًا، مكان يمكننا فيه

مواصلة حياتنا معًا، دون قلق.. ودون منغصات.."

وأضافت وقد إعتراها شرود غريب..

"مكان يمكنني فيه استكمال مشروعي الكبير!"

"أي مشروع هذا..؟!"

"سوف تعرف في الوقت المناسب، والآن: هل أنت معي أم لا..؟"

"معك بالتأكيد، في أي مكان وتحت أي ظرف.. أنا لن أسمح
بفقدانك مرة أخرى مهما كان الثمن!.."

ومن جيبه أخرج دمية خزفية صغيرة لمريم العذراء، كانت دقيقة
الصنع والتلوين..

تأملها للحظة بإعجاب، قبل أن يناول ليليان إياها ببسمة عذبة،
وهو يهمس في أذنها مستمتعاً بدغدغة شعرها لوجنته وأنفه..

"عيد ميلاد سعيد"

ابتعدت عنه قليلاً وتناولت الدمية معجبة..

"خُلوة، من أين أتيت بها؟"

"أهدتني أُمي إياها عصر اليوم، فما وجدت عندي أغلى ولا أحب
منها كي أهديك إياها، يا حبة القلب"

"حسنٌ، لا عليك.. وأنا لن أفارقك إلى الأبد!"

ووضعتها بجانبها بلا اهتمام فوق الرصيف.. سألتها:

"ولكن إلى أين تنتوين الرحيل؟"

قالت ببسمة كبيرة..

"إلى الشمال!..!"

قال ببلاهة..

"روما؟!"

أطلقت ضحكة مرحة..

"روما؟! بل شمال العالم!.. بعيداً بعيداً بعيداً!..!"

صمت لحظات ثم قال مرتبكاً..

"ولكني سمعت أن قوم الشمال يعيشون في الثلوج طيلة الوقت،
لابد أن الطقس لديهم غير محتمل"

"ليست مشكلة على الإطلاق، يمكنني تولي مهمة التدفئة، فلا
تقلق.."

ثم قالت بنعومة بينما تنظر في قلب عينيه مباشرة..

"ثم إنك ستكون بين ذراعيّ على الدوام، فلن تتمكن برودة القطب
من أن تمس عظامك وأنت بجواري.. أليس كذلك؟!"

ساد الصمت بينهما لدقائق طويلة استكانت خلالها رأسها على
كتفه، فمسح على شعرها بحنان، ثم هبطت أصابعه في نعومة تداعب
شحمة أذنها، وخدها، منتشياً بصوت اضطراب تنفسها إزاء لمساته..
قبل أن يستفيقا فجأة على صوت غريب يقتحم خلوتهما..

"مرحى! لقد عادت الفاجرة مجددًا.."

التفتا بسرعة تجاه مصدر الصوت، فألفيا مجموعة من أشقياء
شباب القرية، يعرفهم الفتى جيداً، كانوا عائدين إلى ديارهم بعد سهرة
طويلة، ويبدو أن المشهد قد استرعى اهتمامهم. كانوا يقفون وقفة
عداء جماعية، موجّهين كل حقدهم نحو الفتاة. وكأنهم يعلمون أن
الفتى تحت تأثيرها، فلا رجاء من لومه أو محاورته من الأساس.

المشكلة لم تكن فقط في هذا التجمع المريب، أو حتى في أصواتهم
العالية التي قد توقظ كل أهل البلدة، وتجمعهم في ظرف نصف
دقيقة.. لكنها كانت في كم العصي والأسلحة البيضاء التي ذخر بها
المشهد.

"يبدو أنها تصورتنا قد نسينا ما فعلتُ يا روميرو، وأن آخر الأخبار
لم يبلغ مسامعها بعد!"

نهضت ليليان، ومن خلفها نهض ماريو مسلوب الإرادة تمامًا، ينتظر منها أي إشارة للتحرك. كانت صلبة واثقة إذ قالت..

"يمكنك الرحيل بسلام أيها الفتى، أنا مقدرة تمامًا لتأثير الخمر على رأسك الصغير، فلن أحاسبك.. كانت سهرة جيدة، ألم تكن؟! لا أنصحك بأن تفسد خاتمتها على رؤوس أصدقائك الأبرياء!"

ضحكوا كثيرًا وكأنها ألقّت دعاية طريفة، ثم قال أحدهم بقسوة وهو يلوّح بعصاه..

"أنت مع الأسف من لن يمكنها الرحيل من هنا، لقد رصد "فيكتور إيمانويل" مكافأة كبيرة لمن يأتيه بخصلة واحدة من شعرك، خصلة واحدة مقابل ألف قطعة ذهبية.. يمكنك تخيل حجم الثروة التي سوف تجنيها البلدة، التي كثيرًا ما عانت بسببك، عن طريق التضحية بهذا الجسد الجميل! لكنك لن تأخذي هذا المسكين معك.. مع الأسف، يبدو أننا تأخرنا بعض الشيء، لكن تأثيرك الشيطاني على إرادته سوف ينتهي فور أن تمس النيران طرف ثوبك"

قال ماريو بلهجة مغيب..

"لن يمكنكم المساس بها. وقل للملك هذا أن يبحث عنا جيدًا، لأننا لن نكون هنا عندما يأتي على العشاء غدًا!"

انحنت ليليان والتقطت دمية العذراء، ثم وضعتها بينها وإياهم..

"أتوقع أنكم مازلتم تكونون لها بعض الاحترام، فلن يمكنكم تجاوزها من أجل النيل مني.."

رمق الفتية الدمية الخزفية، وقال أحدهم مغاضبًا..

"أيتها الشيطانة! كيف يمكنك السخرية من مقدساتنا على هذا النحو؟ هل تعلمين أنه بإمكانني أن أحز عنقك فوراً دون أن يهتز لي جفن..؟!"

قالت منفعلة..

"لقد اخترتم هذا، لن يكون بوسعكم إلقاء اللوم سوى على أنفسكم بعد الآن!"

وبإشارة من يدها طارت الدمية الصغيرة في الهواء ثم تحطمت لمئات الأجزاء، وقبل أن يفهم أحدهم ما حدث كانت قد تحركت.

2

"لا أكاد أصدق أنك عدت بالفعل.. أتعرفين؟ كان الأمر بالنسبة لي طيلة الوقت، أمنية عزيزة قضيت دهرًا في سبيل تحقيقها، ولكن..."

صمت سليم عن إتمام عبارته، فقالت ليلى بحنان، متخللة خصلات شعره بأصابعها..

"لكن ماذا؟ أحب أن أعود إلى ما خلف جدران النسيان مرة أخرى يا ماريو؟"

سارع بالقول..

"بالتأكيد لم يكن هذا مقصدي، ولكن أخشى عليك من عواقب العودة إلى مثل تلك الأفعال مرة أخرى. لقد قمنا بالعديد والعديد من الأشياء غير السارة، حتى أنني صرت أتمنى أن تتذكريني وتذكري الطلسم الأخير في الكتاب، فقط حتى نتم الجزء الخاص بنا من الصفقة، ثم لا نعود بحاجة لاستخدام السحر بعد الآن.. هل فهمت ما أقصد؟"

تهدت، وأنزلت بصرها نحو الأرض التي يفتريشان. متأملة ذلك الشعار الدائري الذي يشبه المتاهة بإعجاب..

"أعدك أن ينتهي كل شيء سريعًا، فقط بعد أن تنتهي من روايتك لما كان.."

عام آخر مر عليه هنا.. عام تغيرت خلاله الكثير من الأمور.

كان قد أتى على أغلب ما لديه من كتب، وصار أكثر قوة من ذي قبل بمراحل، لكنه كان يعلم جيدًا الفارق الجوهرى ما بين الموهبة والاجتهاد.. لذلك لم يكن يحلم بالوصول لمستويات عظيمة من إتقان السحر، إلا لو كان هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق هدفه الأكبر.

وصارت واحته الصغيرة مزارًا لأهل البادية من قاطني الصحراء الغربية، وعرف أنه يقطن على مسافة بضعة كيلو مترات من الواحات الخارجة، لكنه لم يكن يعلم موقع هذا المكان من خارطة العالم، ولم يكن يهتم.

وكان اللقاء الأول بينه وأول بشري يفتحم خلوته فريدًا وطريقًا لأقصى حد! وضحك كثيرًا وهو يتذكر كيف صرخ الرجل ذو الجلباب القصير لدى رؤيته وما يحيط به من زرع وأغنام، ثم تمرغ في التراب أسفل قدميه وهو يرجوه أن يشملته بحمايته و(كراماته)! لم يكن يستوعب الموقف بشكل كامل، لكنه قدّر أن الناس في هذا البلد، وبالذات البدائيون منهم لديهم فراسة معينة فيما يخص من يعمل بالسحر. فهم قادرون على معرفته من النظرة الأولى، كما أنهم يقدرسونه كديدن البدائيين في كل مكان من الدنيا، ويخرجونه تلقائيًا في خانة (الدين)، برغم اختلاف السحرمع معظم ديانات هؤلاء القوم!

على أنهم كانوا يتصرفون معه بشكل يخلو من الذوق أحيانًا.. فهو يذكر ما حدث بعد أن رحل عنه ذلك الرجل مسرعًا، وكأن مسًا من الجنون قد لحق به. لقد كان غافيًا في خيمته في الليلة التالية حينما فوجئ باقتحام عنيف للخيمة من قبل بعض الرجال، قدّر عددهم بنحو عشرة تقريبًا، وكان معهم امرأتان شابتان. دون استئذان، وقبل أن يتخذ أي رد فعل دفاعي أو حتى يبدي أي اعتراض، وجد المرأتين قد

انطلقنا بداخل الخيمة، لإعادة ترتيب كل ما بها من توافه الأغراض، والتوجه بالأنية القليلة القذرة نحو القناة الصغيرة التي تروي المزروعات، لغسلها. بينما تولى الرجال مهمة غسل الرجل وتشذيب لحيته التي طالت مع الزمن وعدم الاعتناء، ثم تبديل ثيابه الرثة القذرة بأخرى جديدة ناصعة البياض، كانوا قد أتوا بها معهم من ديارهم!

كل هذا بينما هو خائف، لا يفهم من هؤلاء ولم يفعلون كل ذلك. ولم يرد لهم الإيذاء، فلم يحاول دفعهم عنه بالقوة، وحتى لو حاول أن يفعل، فلم يكن يظن أن كل علمه وقوته واعتراضه على هذا التطفل غير المسبوق: بقادرين جميعهم على قهر تلك الإرادة الفولاذية الشعبية المجتمعة معاً!

وفي النهاية ألقى نفسه، وقد عادت إليه آدميته بعض الشيء، وأن الخيمة قد صارت أكثر قابلية لاحتواء البشر.

ثم حان وقت الكلام، فلم يفهم أغلب محتواه. كان يصرون على دعوته بـ (سيدنا الشيخ)، كما أنه عرف أنهم يتصورونه (وليًّا) ولم يفهم معنى الكلمة، لكن خلاصة الأمر أنهم كانوا يبغون بعض العون السحري منه، فيما يخص بعض شؤونهم. لم يضره الأمر إلى حد كبير، فهو برغم كل شيء ما زال في احتياج إلى تواجد بشري من حوله مهما كان تصنيف هذا التواجد، وهو الأمر الذي لم ينتبه إليه إلا عندما احتك بهم، وتفاعل مع حيواتهم البائسة، ولو كان مجرد تفاعل نسبي. وكان أجمل ما بالموضوع أنه حدد لهم موعدًا أسبوعيًا لزيارته، وأتهم التزموا بهذا الموعد على الوجه الأكمل.

لكنه في كل مرة كان يلاحظ أن مستوى تقديسهم له يرتفع شيئًا فشيئًا، كما أن شعبيته صارت إلى تزايد مستمر بين هؤلاء القوم. ولم

يكن هذا مما يطمئنه بحال، لذا فقد بدأ يفكر جديدًا في الارتحال عن هذا المكان. حتى ما إذا أتى القوم ذات يوم ولم يجدوه هنا، نسوا وجوده وتركوه لحاله، ليعود كما كان وحيدًا هائئ البال بخلوته.

راودته الفكرة، بينما هو جالس إلى أحد كتبه. أو كتب ليليان بمعنى أدق، يحاول إبقاء جفنيه مفتوحين. وكان الليل قد أنتصف منذ فترة لا بأس بها، ولم يكن قد حظي بنوم جيد خلال الأيام الثلاثة الماضية، لذلك لم يشعر بنفسه حينما انكفأ على الكتاب، وذاب العالم من حوله..

استيقظ.

فوجد أنه يفتح عينيه على عالم عجيب للغاية، شديد الإظلام، عطن الرائحة إلى درجة الشناعة.

وتقلصت أنفه بعنف، وهو يدور بعنقه بحثًا عن تفاصيل خيمته التي ألفها، فلم يجد أيًا منها بالمكان. حاول النهوض مفزوعًا، ليكتشف أنه مقيد إلى فراشه الـ.. فراش؟!!

لم يكن فراشًا بالمعنى المتعارف عليه، بل كان عبارة عن لوح حجري طويل يشبه المذبح، وكان مقيدًا إليه بسلاسل حديدية غليظة. امتلأ قلبه بالهلع بينما يحاول اختراق حجب الظلام بعينيه الواهنتين، ليتبين أين هو. قبل أن يسمع أصواتًا لحركة وكلمات خافتة تتردد بالخارج..

"لقد استيقظ.. حان الوقت"

كان الصوت مفزعًا للغاية، لا لسبب معين، لكنه وجد نفسه مع كل حرف يبلغ مسامعه، يرتجف، وتنغرس في عظامه برودة مخيفة. وارتجف بدنه بشكل أعنف، حينما سمع صوت الصرير المرتفع لباب حديدي يبدو أنه يُفتح..

كان الباب واقعًا خلف رأسه فلم يتبين أي تفاصيل، وبرغم أنه قد فتح عينيه بالفعل، إلا أن ضوءًا ما لم ينجح في التسلسل إلى الداخل ولو بنسبة ضئيلة. وشعر بقيوده إذ تنحل بخشونة، قبل أن يُحمل من كتفيه حملًا كالخرقة إلى خارج هذا القبو الرهيب، دون أن يرى أي شيء، ودون كلمة واحدة، لا منه ولا من غيره.

لم يطل بهم المسير، حتى ألقى نفسه بقلب تلك القاعة الكبيرة. كانت تشبه كهفًا واسعًا منحوتًا في عمق جبل، توزعت المشاعل على جدرانه بصورة لا تسمح له برؤية أي شيء. فقط لاحظ أن بصدر المكان، يوضع مقعد كبير مرتفع من الصخر.. هل هو عرش؟
في قلب الجبل..؟؟

لم يحاول تأمل ذلك الجالس فوق العرش، ولم يحاول استخلاص أي تفاصيل عنه، ولا عن المكان، ولا عن أي شيء، وإن حاول لما استطاع!

كان الموقف غامضًا مهيبًا، يشبه الكوابيس إلى حد كبير. وكانت تلك الفكرة هي ما احتفظت له بسلامة عقله حتى ذلك الحين.. فكرة أنه قد يستيقظ في أي لحظة وتنفض (الآرينا) فورًا.

فقط لاحظ أن لذلك الجالس فوق العرش مهابة ما، جعلت حامله يتركاها مرميًا على الأرض، ويتراجعان في خوف إلى الخارج. وتكلم الجالس.. ومع كل حرف قام بنطقه، غزت القشعريرة جسد ماريو مرات ومرات، كدبابيس دقيقة، تغرس بكل موضع من جسده.

"انهض!"

نهض ببطء على ساقين من ورق..

"أنت أتيت إلينا بقدميك.. فهل تعلم عواقب إختيارك؟"

حاول أن يعترض، أن يقول إنه استيقظ ليجد ذاته هنا بلا مقدمات، أن يسأله من أنت.. لكنه وجد لسانه قد شل تقريبًا، وأن حلقة جاف كالحطب..

"نعم، أنت اخترت بإرادتك أن تكون هنا.. ألم تتل خطاب الاستحضار بالأمس؟ لما أردت مقابلي أيها البشري.. انطق!"

هنا فقط أحس بأن عقدة لسانه قد انحلت، وصار يقدر على الكلام..

"من أنت؟!"

شعر أن جدران الكهف تردد صوت ضحكة ساخرة بعيدة، لم يطلقها أحد..

"ألا تعرف حقًا من أنا؟ حسنٌ.. لك أن تعتبرني سيدك الجديد! لن نضيع الوقت في محاورات بلا طائل. أنت لديك هدف ما، أستطيع معاونتك على الوصول إليه، وأنا لدي هدف آخر، سأستخدمك في تحقيقه.. ما رأيك في هذا العرض؟!"

شعر ماريو أنه بدأ يعرف أين هو، ومع من يتفاوض، لكن هذا - ويا للعجب - قد أثار بداخله بعض الشجاعة، وساعد دماءه على العودة إلى مساراتها الطبيعية بداخله، وكأنه لا يأبه بحقيقة أنه بالفعل في حضرة هذا الكيان وعلى أرضه.. بقدر ما يهتم بمعرفة أنه صار قريبًا من تحقيق هدفه الأكبر. لا بد من أن هذا يحدث بالفعل، ليس جنونًا، وليس كابوسًا كما ظن. وإستنادًا إلى هذا المنطق، قال واثقًا..

"إن هدفي الوحيد هو استعادة ليليان، هل تظن أن بإمكانك إحياء الموتى؟!"

"ربما لم يكن هذا باستطاعتك ولا استطاعتي، لكنني برغم ذلك أستطيع منحك إشارة ما، أو مساعدة إن احتجتها.."

"في سبيل ماذا، إن كنت أنت تقول إن هذا مستحيل!"

"استعادتها ليست أمراً مستحيلاً، إلا لو كانت الطريقة الوحيدة لذلك هي إحيائها من جديد.."

"أرجو ألا تكون الطريقة الوحيدة المتاحة أن أذهب أنا إليها!"

"مازلتم أطفالاً أيها البشر، تصدون عنكم فرص النجاة بحماس، وتهرعون إلى قلب الجحيم بذات الحماس، وكأنه لا أعين لكم ترى، ولا قلب يحس، ولا عقل يفكر!"

وتفاجأ ماريو بأنه مُلقى على ظهره، وكأنه يدُ خفية قد دفعته بقسوة، فوقع على الأرض الصخرية الصلبة معدوم الحيلة، تلتف حول جسده قيود وسلاسل قوية. بينما فوق عنقه سُلِطت العديد من السيوف العملاقة المخيفة، التي لا يحملها أحد.

"إنه عرض لدقيقة واحدة، أنت تحلم باستعادة فتاتك، ونحن أيضاً نهتم برجوعها. سوف أساعدك حتى تحصل عليها من جديد، ثم تستخلص لنا منها معلومة صغيرة، لا أحد على وجه الأرض يملكها. كان هي الأخيرة، وقد ماتت.. هذا هو المقابل، فهل تقبل بالعرض؟!"

رمق ماريو النصال المسلطة على عنقه مرتجفاً، وفكر أنها طريقة تفاوض لا يمكن أن تخيب..

"أهي معلومة استعصت عليكم، ولم يمكنكم التوصل إليها إلا عن طريق ليليان؟"

صمت محدثه المهيب لثوان، قبل أن يشير بذراعه فترفع السيوف ويسمح له بالنهوض..

"كان هناك بين كتب ليليان حبيبتيك، كتاب يدعى نجمة الأسرار، أظنك رأيته من قبل. إن هذا الكتاب يحتوي على أهم أسرارنا بالفعل، أهم 1000 سر على مستوى تاريخنا بأكمله. نحن قد سمحنا لها بأن ترث الكتاب عن والدتها، لأننا اخترناها لتعرف. وهي كانت حريصة أشد الحرص على الاحتفاظ بالأمر تحت أقصى درجات السرية، لدرجة أنها قد انتزعت الصفحة رقم ألف وحفظت محتواها جيداً، قبل أن تتخلص منها..

إن تعويذة العبودية هي السر رقم ألف، وذروة أسرار النجمة، ولقد فُقدت من الكتاب. وبعد ذلك فقدنا حاملتها الوحيدة، فلم يعد للتعويذة على وجه الأرض من ذكر، نجمة الأسرار عادة ما تورث أسرارها ولا تُمنح، وقد كانت الفتاة آخر من ورثها من بين أهلي عالمكم وعالمنا على حد سواء.. هل يمكنك إستيعاب هذا؟"

"هل تعنى أنكم منحتم نجمة الأسرار لوالدة ليليان، وكان من المفترض أن يتم توريث هذا السر عبر الأجيال البشرية بلا تدخل منكم؟"

"لم يجانبك الصواب في الجزء الأخير أيها البشري، لكننا لم نمنح نجمة الأسرار لسوزان، بل ورثتها هي عن سحرة آخرين. هل يمكنك تخيل أن دورة توارث هذه النجمة يتجاوز آلاف السنين؟ فقط بشرط واحد، ألا تكون النجمة مع شخصين أو أكثر في ذات الوقت. فقط ساحر واحد على مستوى زمنه، وهو حر في اختيار طريقته المناسبة في توريثها لمن يأتي من بعده، ليستأنف العمل على المهمة"

هز ماريو رأسه متفهماً..

"وما نوع هذه المهمة إذن..؟"

"لن تعرف أيها البشري، ولن يمكنك أن تعرف إلا في حالة أن ترث السر. لا يمكنك تخيل حجم الكارثة التي قد تنشأ عن فقدان سرنا الأعظم، تلك الكارثة التي تنتظرنا كما تنتظركم. والآن وبعد أن عرفت كل ما يهيمك معرفته، سوف تحاول استعادة فتاتك، وحين تنجح سوف يمكنك استخلاص سرنا الأعظم منها، وبذلك تكون أنت من يرث المهمة، ويسعى بها نحو النجاح. سنساعدك ونكون معك في كل خطوة، لكنني لن أخبرك بما ينتظرك من مصير أسود، لو لم تنجح في مهمتك.. لنجعلها مفاجأة!"

وارتجف ماريو حينما سمع جدران الكهف، إذ تردد صوت الضحكات المخيفة مجدداً، قبل أن تظهر أمامه من العدم ما يشبه مائدة حجرية، فوقها ثلاثة صناديق متماثلة مغلقة.

"بإمكانك انتقاء الوسيلة التي تراها هي الأنسب، في معاونتك على استعادة ليليان. ولا تخف، يمكنك فتح الصناديق الثلاثة، واختيار إحدى الوسائل.. لن نفرض عليك اختياراً معيناً!"

تأمل ماريو الصناديق مهوئاً، ثم قال وكأنه يستشعر الخديعة..

"وكيف لي أن أعرف الطريقة الأمثل لاستعادتها؟ أنت أدري مني، فلتختر أنت!"

"بإمكاني أن أؤكد لك أن صندوقاً من هذه لصناديق يحتوي على وسيلة فعالة لمعاونتك، على أداء مهمتك. وبإمكانك التوصل إليه ببعض الحكمة، أنت تعلم أن الحكمة ليست كل شيء، لكنها أحياناً تصبح قيمة حقيقية!"

لم يجادل كثيراً، بل انطلق يعالج الأقفال الثلاثة للصناديق، في ذات اللحظة. وكان ما رآه مغيباً للأمال.

في أحد الصناديق وجد كتابًا مهترئ الغلاف وبلا عنوان، كان كبيرًا بصفحاته العديدة المتآكلة الحواف. في الصندوق الآخر وجد بعض العملات الذهبية، غير محددة الزمن ولا الموطن. كانت عبارة عن عشر قطع صغيرة مستديرة من الذهب، في حجم العملات العادية، لكنها كانت بلا نقوش من أي نوع. وأما أسخف ما وجد فكان في الصندوق الأخير. وهو الذي كان يتصور أنه سوف يعثر على زجاجة دواء، أو ورقة مدون بها تعويذة سحرية، أو أي شيء قد يحمل قيمة ما. ولكن الطريف أنه لم يجد بالصندوق سوى ثمرة واحدة متوسطة الحجم من التفاح الأخضر!

"أنت ضمنت لي أن صندوقًا من بين الثلاثة، يحتوى على الوسيلة المناسبة.."

"ماذا اخترت أيها البشري؟"

وقف ماريو أمام الصناديق واجمًا. أنه قد إعتاد طيلة حياته على أسلوب معين في المفاضلة بين الأشياء.. فإن عرض عليه شينين، بحث عن الأصل فيهما، كأن يعرض عليه مثلاً أن يختار بين برتقالة صغيرة، أو كوب كبير من عصير البرتقال، فيفضل أن يختار ثمرة البرتقال. وكان في هذا يستند إلى مبدأ أنه قد يستطيع الاستفادة من البرتقالة على حالتها السليمة بشكل أكبر، فإن لم يرد، فإن بوسعه أن يعصرها في أي لحظة.

لذلك كانت حيرته شديدة بين قطع الذهب، وذلك الكتاب القديم. فكر أن يدس قطعة ذهبية بجيبه للتأكد من شيء ما، وبالفعل كما توقع تمامًا، وجد أن قطعة الذهب قد تجسدت في الصندوق مرة أخرى ببطء وكأنها أتت من العدم، وبالتأكيد عندما مد أصابعه بداخل جيبه لم يجد أي ذهب من أي نوع! فكر بينه ونفسه..

"حسنٌ، من الواضح أن هذا الذهب ليس إلا مجرد رمز.. ربما كان يرمز للفتنة، أو للطمع مثلاً.. سأعرف عندما أرى ذلك الكتاب، فإن كان كتاباً مقدساً، لكانت المقارنة بين التقوى والفتنة.."

صاح الجالس على العرش مندهشاً..

"تفكير جيد! ولو كان كتاباً عادياً؟!"

لم يندهش الفتى من حقيقة أن أفكاره صارت مشاعاً بهذا الشكل، بل قال مفكراً..

"أعتقد أن.. حقيقة لا أعرف! فلنر أولاً"

ومد يده يفتح الكتاب، فقط ليتأكد من أن الغلاف القديم الفخم، الذي يشي مظهره بالخطورة، يضم بين ضفتيه مئات الصفحات البيضاء تماماً بغير سوء..

"ولا كلمة؟! عظيم.. كتاب عظيم!"

وضع قبضتيه في خصره وتأمل الصناديق الثلاثة، قبل أن يقول متناً أولاً التفاحة الخضراء ويقضم منها قضمة..

"أعتقد أن هذه هي الوحيدة التي لن تتمكن من.."

"قضي الأمر، لقد اخترت بالفعل!"

التفت ماريو إلى الجالس على العرش، صاحب العبارة التي قاطعته منذ لحظة واحدة، وهو يلاحظ اختفاء الصناديق الثلاثة..

"ألا ترى أن الأمر يبدو وكأنك دفعتني دفعاً نحو هذا الإختيار بالذات؟!"

"إنه كذلك بالفعل! إن أنت فكرت في أن الكتاب تلميح عن فكرة الحكمة، والذهب يرمز للثراء..."

قال ماريو، مكملًا الجملة بنفسه..

"لكانت التفاحة الخضراء رمزًا للصحة.."

"بالضبط، لكننا هنا نصنع المطلق كما تصنعون أنتم حساء الدجاج.. الحكمة لدينا مطلقة، الثراء أبدي!.."

قال متشككًا..

"لعل الصحة لديكم لا تعني الخلود!"

"إنك شديد الذكاء أيها البشري. إنها بالفعل تعني الخلود، ولكن ليس بمفهومكم الساذج الطفولي.. أيًا كان مفهومه لدينا، لو خُيرت بين الخلود، والحكمة المطلقة، والثروة الأبدية، فأيهم تختار كوسيلة لمساعدتك في استعادة ليليان؟"

فكر قليلاً..

"لا أعتقد أن هناك خلودًا، ولو كان موجودًا فلا أعتقد أنه قد يساعد على إعادة الموتى من قبورهم! ولكن لو أن الحديد يدور بشكل تجريدي، فمن الممكن أن نطبق ذات الكلمات على الثراء والحكمة سواء بسواء. إذن المحك الحقيقي هنا هو: إن كان ثمة خلود فعلي، فهو يمنحك الوقت اللازم لاكتساب الحكمة، وسيبقى لديك وقت إضافي لصنع الثروة.. أعتقد أنني أحسنت الاختيار!"

"بل إن من أحسن الاختيار حقًا هو أنا.."

التفت ماريو تجاهه صامتًا، فأتبع بصوت عميق..

"لقد اخترتك منذ البداية لهذا الغرض، والآن أعلم تمام العلم أنني لم أخطئ، إنك الوحيد القادر على إتقانها بالفعل. ستفعل أيها

البشري.. سوف تستعيد حبيبتك، وسوف تعلم السر المفقود من نجمة الأسرار.. رأيت هذا الآن"

"لا أفهم! كيف تقول إنك من اختارني للمهمة، وقد قلت من قبل أنني أنا من طلب القدوم إليك وأتي بإرادته راغبًا في العون؟ ثم إنك لم تخبرني كيف ولا متى أستطيع إستعادة ليليان، ولا ماذا أفعل عندما أعر على هذا السر المفقود؟!"

"كل أسئلتك ستعلم إجاباتها في الوقت المناسب، كل ما يهمك الآن معرفته، هو أنك بالفعل قد حصل على الخلود الذي اخترت بإرادتك ورغبتني"

"أيعني هذا أنني لن أموت...؟"

"بل شيخ وتموت، ولكن ليس كما يفعل الناس. ستلاحظ أن عقد تام مما يمر بالبشر، سوف يمر بك وكأنه عام"
قال ماريو مستمتعًا..

"أي أنني سوف أبدو بعد مئة عام، وكأنني في بداية العقد الثالث!"
"كذلك سوف أتكفل بحمايتك من محاولات القتل، وسوف أفيك آثار التسمم، وأقطب لك الجروح، وأمنع شرايينك من الانسداد، وأحول بين حوادث السير وإياك، وأحصنك ضد الانفجارات. قل إنني سوف أعين لك حارسًا شخصيًا، مع طاقم تريض فوري لا مرئي، ليعنى بك عناية تامة"

"أظن هذا كافيًا كي لا أموت"

"بل تموت! فقط في ثلاثة أحوال تموت، الأولى أن تقتل نفسك بنفسك.."

"لا أظنني هذا الشخص"

"والثانية أن يقتلك محب لك. ولا يجوز القتل الخطأ، بل يشترط النية والعزم!"

"احتمال معقد بما يكفي لتجنبه.."

"أما الثالثة، فهي حين يقرر قلبك أن يكف عن النبض بلا سبب!"

"تعني عندما يحين أجلي.."

"أو كما قلت"

"هذا أكثر من كافٍ، لجعلي أقرب إلى الخلود كما نصلح عليه"

"يمكنك الاستمتاع بنتيجة اختيارك، فور أن تخرج من هنا، عليك أن تبدأ بترتيب أوراقك لتعلم في أي طريق سوف تسلك، ولكن ينبغي أن تعلم أمرًا شديد الأهمية، سوف تنال فرصتك كاملة لتحقيق هدفك وهدفنا، ولكن إن فشلت.."

"ماذا ستفعل بي..؟!"

"سيكون لنا لقاء آخر، ولسوف تعلم!"

استعاد الفتى رجفته، وقد تذكر أين هو ومن يخاطب..

"هل يمكنني الخروج إذن؟!"

"فقط إن أجبت سؤالاً أخيراً، لقد كانت الاختيارات الثلاثة بين الثروة والحكمة والصحة، وأنت اخترت الأخيرة لأنها الوحيدة القادرة على منح الفرصة لتحقيق الاختيارين الآخرين، أليس كذلك؟"

"بلى"

"لكنك تعلم تمام العلم أنه لا المال ولا العلم ولا طول الأجل، ولا الثلاثة مجتمعين، يستطيعون إحياء من مات بالفعل. فلم تراني منحتك ما منحت على سبيل المساعدة؟!"

توتر ماريو..

"مبدئيًا: ليس هذا فخًا وأنت أكدت لي أنني أحسنت الإختيار، ألم يحدث؟"

"هذا ليس فخًا وليس مزاحًا أيها البشري!"

"إذن، فلا أظن أن استعادة ليليان سوف تكون بإحيائها، ولا أظن الأمر يحتاج إلى شخص تجاوز عمره قرونًا من الزمان. ربما كان معنى هذا أن الوسيلة التي قد تساعدني على استعادتها لن تتاح قبل مرور زمن طويل؟"

"لقد اقتربت من الحقيقة، ولكن ألا تظن أنه كان من الأجدر والحال هكذا أن نوظف لأداء المهمة شخصًا يحيا في هذا الزمن البعيد الذي تعني؟"

فكر قليلاً ثم قال..

"ربما كانت هذه الوسيلة تتطلب إعدادًا مطوّلًا إلى هذا الحد، أشعر بأن الكثير من العمل ينتظرنني.."

صمت الجالس على العرش طويلاً، بالنهاية قال..

"سوف تعود إلى حيث كنت أيها البشري، وسيكون لك حق التجربة والخطأ كما يحلو لك، ثم نلتقي!"

في الصباح التالي، استيقظ ماريو فيبيوناتشي في خيمته، على ذات الوضع الذي نام عليه، وبين يديه ذات الكتاب الذي كان يطالعه حين غفى. واستغرق منه الأمر وقتًا طويلاً. قبل أن يظن إلى أن ذلك الكابوس العجيب الذي راوده أثناء غفوته، لم يكن كابوسًا.

تفاصيل عدة مرت به خلال الأيام التالية، جعلت دهشته تتنحى جانبًا مع الوقت، لتفسح المجال للتفكير العقلاني المستند إلى المنطق. ربما كانت حقيقة أنه لم يمت، بعد تعرضه لعدة إصابات قاتلة متوالية بشكل مدهش، أدعى إلى التأمل، من الدهشة أو الرعب أو أي شيء آخر..

ترى ما الطريقة المثلى للانتفاع بمثل هذا الشيء؟!

كفَّ سليم، أو فيبوناتشي، عن الكلام. ثم طوى ذراعيه أسفل رأسه متوسداً إياهما، بينما نام فارداً ساقيه فوق سطح المبنى الإداري لمؤسسة (داغر) للمقاولات العامة. وبجانبه رقدت ليلى في ذات الوضع، تنصت إليه، حتى انتهى. وقد تماست أطراف أقدامهما في حرف ٧ ضيق الزاوية.

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب منذ ساعة أو تزيد، وبدأ الهواء يشتد إلى حد ما في تلك البقعة التي ترتفع عن سطح الأرض عشرات الأمتار. لكن هذا لم يكن يمثل أهمية عظمى، قياساً إلى مدى السعادة التي اعترتها، كل وأسبابه.

"يعني انت استنسختني من ليلى القديمة؟!"

"إيه رأيك؟ عملت تجربة أولى بس فشلت.. يعني انتي الجيل

التالت!"

واستنشق جرعة كبيرة من الهواء قبل أن يقول..

"لورا كانت من أول ناس انضموا لي واشتغلوا معايا في مشروع الكبير، كنت عارف إن اهتمامها بالموضوع اهتمام علمي بحت، عشان كدا وافقت أعمل لها قسم في مستشفى لندن، تلعب فيه براحتها وتبتكر، وتوصل لأنجح طريقة ممكن أرجعك بيها، لحد ما في يوم اتصلت بيا، وبشّرتني إنها قدرت تخصص بويضتين، وعشان كنا عايزين

"والبنت اللي كانت رايحة جاية معاكي في كل مغامراتك السريّة،
والكتب اللي كنتي بتشترهمها من المكتبات، المركز التجاري، الراجل اللي
قطف الوردة وعجبك منظره.. كل دا وأكثر أنا اللي اهتمت بيه
بنفسي!"

قالت راضية..

"برافو! بجد تسلم إيدك"

"بس فيه حاجة أنا مش فاهمها، هي الذكريات والخبرات المكتسبة
مش المفروض إنها مش بتتورث؟"

"الحالة دي بالذات مالهاش حل غير التوريث. سوزان ماتت وهي
بتولد ليليان، تفتكر نقلت لها المهمة إزاي وإمتى؟"

إعتدل سليم جالسًا، وقال نافضًا الأتربة عن كمّي قميصه، بينما
كانت سترته ملقاة بجانبه..

"كام سنة وأنا بقلّب في كتبك، لغااية ما فهمت مع الوقت إن
نجمة الأسرار مش ألف سر.. هو سر واحد كبير متكامل، زي لعبة لها
ألف مرحلة. فضلت أحارب وأسافر وأشتغل وأدور، لغاية ما عدت كل
المراحل، ومابقاش فاضل غير التفويلة!"

سألت ليلي..

"وبعد كل دا وصلت لإيه؟"

"اللي قدامك دا!"

وأشار بذراعه نحو الشكل الدائري العملاق، الذي يمثل شعار
الشركة..

"انت ماكنتش عارف الرمز دا معناه إيه، وعملته شعار للمؤسسة بتاعتك؟"

هز كتفيه دون رد، ثم قال بعد دقائق من التفكير..

"جزء من الصفقة اللي كانت ما بيبي وبين الكيان دا، إني أكوّن ثروة كبيرة، دا كان جزء من الهوم وورك بتاعي! طلب مني أنشئ شركات كتير على مستوى العالم، وكان عنده شرط أساسي إني أوظف عندي أكبر عدد من الناس. أنا طبعا كنت عارف إن الموضوع مالوش علاقة بحل مشاكل البطالة! واضح إن كان ضروري أحقق رقم معين من الأتباع اللي شغالين عندي، وبينفذوا أوامري. تعرفي إن آخر إحصائية لعدد الناس اللي شغالين لحسابي بتقول إن العدد تخطى اتنين مليون وتلتميت ألف؟! رقم مرعب. الغريب إني بعد ما بدأت اشتغل وأكوّن ثروة، لاقيت نفسي باختار الشكل اللي عامل زي المتاهة دا، عشان أحطه على كل حاجة شايلة اسمي، يمكن كنت فرحان بالإنجاز عشان قدرت أفك الأسرار؟"

أعدت ليلي بصرها ناحية الشعار..

"تسلم إيدك، كنت واثقة إن انت اللي هاتقدر تحقق المعجزة، وتفك طلاسمة النجمة.. جبت لي معاك الكتاب؟"

التقط سترته، ومن جيبيها الداخلي أخرج مغلفًا متهالكا، منحها إياه..

"أهو! بس خلي بالك الصفحات ضايعة خالص"

فضت ليلي المغلف بحذر، وأخرجت الصفحات المنفصلة، ثم نهضت وتوجهت نحو المتاهة الدائرية المحفورة في الأرض، وظلت للحظات تنقل بصرها بين الرمز والصفحات، قبل أن تعلن في انتشاء..

"كل حاجة تمام قوي، برافو عليك.. جهزت عقود نقل الملكية؟!"

رمقها في ذهول..

"وانتي عرفتي منين موضوع نقل الملكية دا؟!"

"قل لي انت عملت كدا ليه، وأنا أقول لك عرفت منين!"

قال متحيراً..

"مفيش! كنت بس عايز أعمل لك مفاجأة، و.."

لم يتم عبارته إزاء نظرتها الحنون المشفقة التي قالت بعدها..

"يا حبيبي مش دا السبب، انت عملت حاجات كتير وانت مش عارف سببها، زي بالظبط ما اخترت شعار شركاتك هو نفسه حل طلاسم النجمة. يعني انت وصلت بثروتك واستثماراتك للحجم دا علشان تخلق لنفسك كل العدد المهول دا من الأتباع.. وبالعقود دي كلهم رسمياً هابقوا تابعين ليا أنا، صح؟"

هز رأسه في ببطء أن نعم، فأكملت مشيرة بإصبعها نحو السماء مبتسمة..

"ودلوقت زي ما انت شايف، البدر في وسط السما زي الريال الفضة.. كمان دقايق، النور بتاعه هاييجي على الشعار، وهايستمر دقيقة واحدة.. تيجي نبدأ عشان مانضطرش نستني لبكرة؟"

وتوجهت نحوه لتتعلق بعنقه في دلال، بينما نظراتها تلتهم ملامحه التهاماً. اقتربت أكثر وشبّت على أصابع قدميها كي تطل شفتيه، في البداية مررت شفتيها عليهما بنعومة، سامحة له بتذوق عطرها الأخاذ، والتنعم بلامسة بشرتها الدافئة، قبل أن تنقض عليهما ملتزمة إياهما بجنون ووحشية، أشعلا النار في قلبه وعقله وروحه وأطرافه. في النهاية ابتعدت ببطء لتتأمل عينيه جيداً، فبدأ وكأنها قد سلبته إرادته تماماً وصيرته عبداً لها. كانت تلك هي طريقته المفضلة!

"يخرب بيت سنينك! انتي حطيتي لي إيه في البوسة دي؟!"

ضحكت، ثم سحبته من كفه، وسارت بخطوات ناعمة، فتبعها كطفل يتبع أمه في وسط الزحام، وسار معها نحو الدائرة. بنعومة فكت أزرار قميصه، ثم طلبت منه أن ينام عاري الجذع في مركز المتاهة تمامًا.

أطاعها في سلاسة غير عادية، مما دل على أن إرادته قد انعدمت تمامًا، فقالت مبتسمة وهي تخرج من حقيبتها الصغيرة سكينًا رقيقًا، طويل النصل بالغ الحدة، وتوجه نحوه غامزة بعين واحدة كالقطط..

"دلوقت تعرف الجزء اللي فاتك من القصة الطويلة دي!.....!"

وضعت السكين فوق صدره العاري، ثم جلست مترعة إلى جواره، وقد أراحت ذقنها فوق قبضتها المضمومتين وهي تقول..

"اللورد اللي انت قابلته دا، بقى له كام ألف سنة نفسه يعبر الحاجز ما بين العالم بتاعنا والعالم اللي هو فيه، هو إمكانياته تسمح له يبقى إله بالنسبة للبشر.. بس هو في مكانه مجرد جندي في جيش مالوش أول من آخر. كتير حاول.. ولا مرة وصل لحاجة. المساعدين اللي كان بيختارهم أغبيا كلهم، كلهم وقعوا في نفس الغلطة، حتى سوزان.. كان لازم واحد فيهم على الأقل يفهم إن حياة واحدة مش كفاية، عشان تحل كل أسرار النجمة وتفتح البوابة. الموضوع معقد زي ما انت شفت، ومحتاج شغل كتير ووقت طويل جدًا، وماكنش هاينفع غير إن كل واحد يسلم للي بعده عشان يكمل.. بس كلهم اتغروا، وكل واحد في اللي ورثوا السر، كان فاهم إنه أخطر من اللي قبله، وإن هو الوحيد اللي يقدر يعملها لوحده"

وتنهدت في عمق ثم قالت..

"من حسن الحظ إني كنت أذكي منهم. وفهمت إنه عشان أنجح لازم تحصل سلسلة طويلة من التسليم والتسلم على مدار كذا جيل.. بعدا ما اشتغلت شوية توقعت إن اللي هايورث السر من بعدي هايكمل الشغل، بعدين انتهت لإني بكرر نفس الغلطة! مين يضمن لي إن اللي هايستلم متي مش هايبدأ من الأول ويرمي كل تعبي زي كل اللي سبقونا ما عملوا؟ من هنا فكرت في واحد يكون عنده إمكانية تحقيق المعادلة دي، يكون عنده الوقت الكافي يعمل كل حاجة، وفي نفس الوقت يكون بيحبيني فعلاً، حتى لو كان حب سببه وصفة سحرية أبدية المفعول!"

ابتسم لها ماريو، فبادلته البسمة وهي تكمل سردها، مداعبة شعره بالطريقة التي تعلم أنه يحبها..

"الخطة كانت جاهزة في دماغي، بس اللورد أصر يختار بنفسه الشخص المناسب لتنفيذ المهمة دي. واختارك. كانت الخطة إننا نروح البلاد التليج دي، ونبدأ شغلنا من هناك، وبعد ما أموت تبدأ أنت وتكمل كل حاجة، وفي نفس الوقت تفضل شاغل بالك بيا وهدفك الكبير إنك ترجعني، عشان لما أرجع أحط بإيدي آخر قطعة في البازل.. والبوابة تفتح.. واللورد يقدر يعدي، ويبدأ يسيطر على الأمور بمساعدة جيشي الكبير من الأتباع والموظفين والعمال، وفي خلال أيام يكون قاعد على عرش الكوكب بمنتهى السهولة!"

"بوابة..؟!"

"طبعًا يا حبيبي. انت ماتعرفش أن نجمة الأسرار دي وسيلة لفتح البوابة، ما بين العالم دا والعالم بتاعه، وبعد ما أحرر تعويذة العبودية، هايقوم كل أتباعي في كل أنحاء العالم ويلبوا النداء.. الأتباع اللي انت جمعتهم لي بنفسك طول السنين والسنين اللي فاتت..

هايكُونوا شبكة كبيرة قوية، تتحدى أي جيش في العالم بأهم سلاحين،
الانتشار والسريّة. ويمهدوا الكوكب لدخول اللورد.. اللي هاييجي لنا
ومعاه المجد والقوة والخلاص"

أغمض عينيه بوهن وقال..

" لورا كانت عارفة، إصرارها على نجاح التجربة ماكنش طبيعي
خالص.."

"لورا وكل الناس اللي ساعدوك كانوا من جنود اللورد، جنّدهم
لمراقبة شغلك، ومساعدتك لو لزم الأمر.."

في اللحظة التالية، انزاحت تلك السحابة الصغيرة التي كانت
تظلمهم من ضوء القمر الفضي، ليسقط فوق المشهد بالكامل، ويغلفها
هي وماريو والشعار / الطلسم بضوئه الرقيق البارد. تناولت ليليان
السكين، ومالت لتطبع قبلة على جبين سليم هامسة..

"أنا عارفة إن دا هايوجعك قوي، بس اظمن مش هاتموت.. على
الأقل مش دلوقت!"

قال ناظرًا إليها في هيام..

"هاتعملي فيا إيه يا روجي؟"

"تعويذة العبودية، السر الألف.. مش تعويذة بتنتقال، هي عبارة عن
طقس ضروري لقيام الأتباع، وفتح البوابة. عشان كدا قطعت
الصفحة بتاعتها، لأنك لو كنت عرفت، مستحيل كنت تبدأ تدور على
بقية الأسرار.. بعد تجميع 997 طلسم وتحديد الشكل النهائي للمتاهة،
الطلسم رقم 998 بيكون مسؤول عن أبعاد الرسم، والطلسم قبل
الأخير دا بيقول لك تحفر الرسم بالمقاييس دي، على سطح مكشوف
ومعرض لضوء القمر. مش دا اللي انت عملته؟"

هز رأسه إيجابًا بلا كلمات، فقالت..

"حلو قوي! آخر خطوة بقي إن الساحر هاستخدم دم حد من الناس اللي بيحبوه، عشان تسيل في ممرات المتاهة وتقل كل الخطوط، هنا بس الأتباع يقوموا والبوابة تتفتح.."
رمقها للحظات ثم قال بخفوت..

"وانتي ليه هاتعملي فيا كدا.. أنا بحبك وعملت كل دا عشانك!"
قالت متأملة وجهه بحنان..

"أنا عارفة، عشان كدا انت الوحيد المناسب للدور دا! ماتخافش، أنا وعدتك إنك مش هاتموت دلوقت.. مفيش حاجة تخوف"
بدأت عيناه تدمعان ظلمًا، وقال بينما لم يزل في نفس وضع الرقود الذي اتخذه..

"لأ هاموت، أنا ضيعت كتير قوي من معمرى، وأكثر من عمري كمان، عشان أرجعك من الموت، عشان بحبك.. وانتي عايزة تموتي"
قالت في تأثر وهي تمسح بأصابعها على وجنته المبتلة..
"وآديك نجحت أخيرًا، وخلص أنا جنبك أهو، بتعيط ليه بس، مش انت عايزني ابقى فرحانة؟"

"بس اللورد قال لي إن حمايته هاتنتهي وأموت، لو حد بيحبني هو اللي قتلي بالقصد.. مش أنا حكيت لك؟"
صممت لدقائق قبل أن تصرح بلهجة محايدة..

"ماتخافش، قلت لك مش هاتموت! بص.. ضروري تعرف إنني لما إديتك الوصفة كنت بنفذ أوامر اللورد، عشان تساعدني في مهمتي، لأني فعلا كنت محتاجة لبني آدم واحد يحبني، عشان يرضى ينفذ

خطتي، وأديك كنت شايف.. أخباري كانت مسمّعة في أوروبا كلها..
لدرجة إن الناس كانوا بيقللوا أبواهم وشبابيكم لو سمعوا إسمي!
كانوا خايفين حروف إسمي تفسد نفوسهم وتخلّهم يقتلوا بعض
ويحرقوا المحاصيل وينتحرروا.. نسيت كل دا؟ كان ضروري يبقى فيه
واحد على الأقل بيموت فيا، واحد بس في العالم كله كان كفاية
بالنسبة لي. وأديك عملت كل حاجة بالظبط زي ما كان نفسي.. ليه
مش عايز تتم جميلك للآخر؟!"

صمت من هول الصدمة لدقيقة، قبل أن يقول في النهاية بصوت
خافت مرتجف، لم يتخلص من بساطة وطفولية كلماته، بفعل وقوعه
تحت سيطرتها..

"معظم اللي قلتية أنا مافهمتوش، بجد مش عارف أركز. بس سؤال
واحد نفسي اسمع إجابتة بصراحة.. يعني انتي ماحبيتينش خالص؟"

"ماحصلش خالص، يمكن ليلى داغر حسست ناحيتك بالحب لحظة
أو اتنين لما كانت بتحس إن مالهاش غيرك.. لكن ليليان فان أورتون،
دي عاجزة عن الحب.. هي نفسيتها كدا، يعني الموضوع مش شخصي،
صدقني!"

كانت تتكلم ببسمة جميلة وكأنها تفكر في قبول دعوة منه على
العشاء..

"لحظة أو اتنين.. كفاية قوي عليا!"

واستنشق جرعة كبيرة من الهواء، ليستطيع كظم مشاعره، قبل أن
يكمل بهدوء عجيب وهو يسبل جفنيه..

"اعملي اللي انتي عايزاه، الموضوع بالنسبة لي انتهى خلاص. بس
ممكن اطلب منك آخر طلب؟"

قالت بصوت دافئ، وهي تثبت عينيها على عينيه المغلقتين..

"طبعًا.. عايز إيه؟"

نهض جالسًا ببطء، وقال وقد انحسر شيء ما في حلقه، فخرجت الحروف مشحونة بكم هائل من العواطف التي بذل جهدًا رهيبًا في كبتها..

"نفسي أحضنك.. آخر مرة قبل ما امشي! ممكن؟"

تقدمت نحوه وارتمت بين ذراعيه، ليعتصرها بمنتهي الشوق الممتزج بالحزن العميق. ظلت مستكينة بين أحضانه لدقيقة قبل أن يبعدها ليتأمل ملامح وجهها الجميلة الطفولية، ويداعب خصلات شعرها النافرة، ثم يضع على خدها قبلة مبتلة بأثر دموعه. قال وهو يعود لرقاده فوق المتاهة مغمضًا عينيه من جديد..

"عايزك تبقي بخير، وتفرحي.. لو يوم زعلتي، وحسيتي إنك لوحدك، عايزك تفتكري إن كان فيه حد بيحبك أكثر من نفسه، عاش قرنين بحالهم يحلم بيكي، ويدور عليكي، ويوم ما يموت.. هايموت وهو بيموت في كل تفصيلة من تفاصيلك"

تأملته للحظات قبل أن ترفع سكينها الحاد، وتتجه به نحو صدره العاري بكل هدوء وثقة..

"أوعدك هافتكر الكلمتين دول!"

الختام

أغلق د.سمير الكتاب بقوة. وقد شعر بأنه قد نال من حرقه الدم ما يكفي..

"بس كدا؟!.. (أوعدك هافتكر الكلمتين دول!) وبعدين خلاص؟! بقية الصفحات فيه حد قصّها بالمقص، كأن صاحب الكتاب ماعجبتهوش النهاية، فقرر إن كفاية لحد هنا!"

قال صديقه الدكتور حسن وهو بيتسم مندهشاً..

"أنا قرّيت الرواية من كتر الزن بتاعك، وعلى فكرة لاقيت النهاية منطقية جداً.. مش فاهم فين المشكلة؟!"

تأمله سمير ساخطاً..

"أنا عدّيت الصفحات الناقصة من الكتاب، لاقيتهم حاجة وعشرين! فيه كتاب في الدنيا فيه الكم دا من الصفحات الفاضية؟ أنا دلوقت عايز أعرف الرواية انتهت على إيه، من حق الكاتب يختار بنفسه نهاية أحداث روايته!"

وضع صديقه ساقاً فوق أخرى، وقال بجدية..

"ومن حق القارئ إنه يوافق أو يعارض، لاحظ إنه ما رحش للكاتب يناقشه في نهاية القصة، هو اتصرف في حدود حريته الشخصية، وقطع نهاية النسخة بتاعته، عشان يقرأها بالشكل اللي يريحه.. يعني ما بوظش كل نسخ الرواية. متهيألي هو ماغلطش للدرجة دي!"

"ما هي دي المشكلة! أنا قلبت الدنيا على نسخة تانية من الرواية دي مالقيتهاش في أي مكان، أنا حاسس إن ماحدث قراها غيري أنا!"

ثم زفر في حنق..

"فاكر المشهد اللي الساحرة صحيت فيه من الكابوس وافتكرت كل حاجة؟"

وقلب صفحات الكتاب بحثًا عن صفحة معينة..

" (هناك من يحاول إفساد هذا العمل.. ولا بد من إيقافه بأي ثمن.....) تقدر تقول لي الكلام دا معناه إيه؟! كان المفروض حد يتدخل ويمنعها من المصيبة اللي عايزها تعملها، مش مهم هاينجح ولا لأ.. بس دا ماجتش سيرته في الرواية خالص زي ما انت شفت. تفكرت كانت تقصد مين؟"

"أنا شايف إنك بتحاول تكمل الرواية بنفسك، فكرة حلوة! يمكن ترتاح من وجع القلب اللي انت فيه دا.. لو عايز رأيي كان أسهل لك ترمي الكتاب كله من الشباك وتريح دماغك!"

قال سمير مفكرًا، كأنه لم ينتبه لتعليق صديقه..

"غالبًا هي تقصد الدكتور اللي كان بيعالجها.. هو الوحيد اللي عنده فكرة عن ماضيها ومالوش مصلحة تعمل العملة المهبّبة دي! بس يا ترى إزاي هايتدخل؟"

وبشروود تناول قلمًا وورقة من فوق مكتبه، وظل يرسم مربعات متداخلة لا نهاية لها، وقد استغرقه التفكير تمامًا. ولدقائق ظل على هذا الوضع، قبل أن يقطع بلسانه سأمًا وإرهاقًا، ويلقي بالقلم..

"مكانك!"

انطلقت الصيحة لتخترق مسامع ليلى، بينما كان نصل سكينها على بعد سنتيمتر واحد من صدر سليم، فالتفتت ببطء لتراه وقد وقف متوترًا، وبين أصابعه استقرار مسدس صغير الحجم..

"انت إيه اللي جابك دلوقت، الموضوع انتهى ومفيش قوة على وجه الأرض هاتقدر توقفي!"

"أنا اللي هقف لك يا ليلي! مش هاسمح لك تدمري العالم كله بغبائك"

وأطلق رصاصة مرت على بعد مترين من جسدها، فاتقدت عيناها بنظرة نارية..

"انت حاولت تقتلي دلوقت، ولا أنا تقلت في الشرب؟!"

ودون أن تتحرك من مكانها، اطلقت نحو سمير لعنة قاتلة على هيئة صاعقة، لكنها توقفت على بعد سنتيمترات منه ثم تشتت في الهواء..

"جرني للصبح لو عندك وقت!"

قالها سمير بصوت محايد، مما جعلها تستشيط غضبًا، وتهض بشكل مفاجئ صارخة وقد رفعت ذراعها نحو السماء. ومن كل اتجاه انهالت الصواعق على جسد سمير، الذي عقد ذراعيه بشكل مستفز، تاركًا الدرع الخفي الذي يحيط به من كل اتجاه، يقوم بعمله.

ونهض سليم من مرقده جالسًا ببطء، وهو يسأل مذعورًا كطفل استيقظ فلم يجد أمه بالجوار..

"ليلى.. إيه اللي بيحصل؟!"

استنشقت ليلي جرعة كبيرة من الهواء، ونظرت نحو سمير في غل، بينما يعلو صدرها ويهبط بسرعة مما يدل على إجهادها وانفعالها. وبعنف رمت السكين على طول ذراعها من فوق السطح، ثم قالت بعنف مشيرة إلى سمير..

"المفروض هو اللي يشرح لنا!"

قال سميرهازا كتفيه ببساطة دون أن يتخلى عن مسدسه..

"ولا حاجة! كل الحكاية إني قابلت مترجم إيطالي وخليته يفهمني بالظبط إيه اللي دار في جلسة التنويم الإيحائي اللي سجلتها على تليفوني، وعرفت إن الموضوع كله بيدور حوالين تعويذة العبودية. وافتكرت إني قرئت الكلمة دي أكثر من مرة في كتاب قديم عندي، رحت قلبت المكتبة على أي حاجة بتتكلم في الموضوع دا لغاية ما لاقيت شرح مبسط للموضوع. كل اللي طلعت بيه إن المعاد لازم يكون أول ما البدر يتم، والمكان استنتجته بسهولة، خصوصًا لما وصلت ومالقيتش حد خالص في المبنى، حتى بتوع الأمن، واثأكدت إن استنتاجي كان صح!"

قالت في إرهاق..

"انت مش ساحر، وأنا متأكدة إن ماعندكش أي قدرة على حماية نفسك.. انت إزاي عملت كدا؟"

قال بهدوء..

"أنا ماعملتش حاجة، انتي اللي عملتي! فاكرة يوم ما نسفتي مقر الجمعية؟ أنا ما اتصبتش بخربوش واحد، مع إن المكان كله بقى خرابة، انتي اللي عملتي بيبي وبينك رابط يحميني عشان الانفجار ما يقتلنيش، ساعتها أنا عرفت إنك مش مجرد بنت عايزة تفتكر ماضيها، واثأكدت إنك ساحرة ثقيلة كمان. عايزة الحق؟ أنا جت عليا لحظة حسيت فيها إني بميل ليكي، بس لما دورت كويس فهمت إن النوع دا من الروابط ساعات ممكن يعمل اختلال في المشاعر بالشكل دا. كان عندي إحساس إن الرابط دا هاينتقذي مرة ثانية، وأديني طلعت عندي حق كمان مرة زي ما شفتي!"

قالت ليلى في حقد..

"شكلك قريب لك كتابين وفرحان بهم، بس دا مايمنعش إنك غبي يا دكتور. معنى كلامك إن انت كمان مش هاتقدر تئديني بالمسدس العبيط دا"

"يمكن لو المسدس في إيدي فعلا هايبقى عندك حق!"

وبحركة سريعة، ألقى بالمسدس نحو سليم الجالس مغيبًا، والذي التقط المسدس، فلم يفهم ما المطلوب منه على وجه الدقة..

"هات البتاع دا يا ماريو.. دا خطر، انت فاهم؟!"

رمقها في تساؤل وهو يمد يده إليها بالمسدس..

"لااااا! خلي بالك.. عايزة تقتلك!"

"مش هاتموت، قلت لك خمسين مرة مش هاتموت، احدفه لي أو ارميه من فوق السطح.. اوعى تديه له!"

"بتضحك عليك يا ماريو، ماتصدقهاش! اقتلها قبل ما تقتلك!"

ظل سليم يقلب بصره بينهما، وقد اعتلت وجهه تعبيرات تنم عن الحيرة والضياع، ثم حدث كل شيء بسرعة. سليم قد استقر رأيه على إعطاء المسدس لزوجته الحبيبة، فتقدم سميّر مسرعًا ليحول بينهما، مما جعل ليلى تصرخ غاضبة وهي تسعى نحوهما، وتلقي بإحدى لعناتها على السلاح بنية الإطاحة به، فلم تفلح في إصابته. في نفس اللحظة التي يشعر فيها سليم بالخوف إزاء هذا الهجوم المزدوج. مما يجعله يخفي المسدس خلف ظهره، باعدًا إياه عن كليهما. فيتسبب ذلك في جعل اللعنة تصطدم بصدرة بشكل مباشر.

لم تقتله اللعنة، لكنها أصابته بالأم رهيبة، أخرجته من حالة السيطرة التي كان واقعاً فيها. سقط على وجهه وهو يصرخ بشدة.

"يا بنت الحرام!"

"سيب المسدس أحسن أخلص عليك.."

صاحت بها بغضب جم، وقد فقدت السيطرة على أعصابها، فأخذت ترميه باللعنة تلو الأخرى في جنون. حتى أنه تمى من شدة الألم أن تتوقف الحماية ويموت فوراً.

تراجع سمير بخوف شديد وهو يرى سليم يتلوى ويصرخ على هذا النحو الرهيب، بينما بدت ليلي وكأنها قد أصيبت بجنون تام. فلم تتوقف عن إلقاء اللعنات القاتلة، إلا عندما اعتدل سليم بعسر شديد، مصوباً المسدس نحوها وهو يصيح..

"غوري في داهية بقى!"

ثم أفرغ في جسدها رصاصتين، أصابت واحدة منهما منتصف صدرها، في حين مرت الثانية من خلال عنقها وتجاوزته إلى الجهة الأخرى. كانت في تلك اللحظة تقف في منتصف الدائرة تماماً، فظلت تترنح للحظات وهي ترى دمائها التي سالت لتغرق المتاهة. وكالمذهولة تابعت مسار الدم في المتاهة حتى رأت أن الدائرة قد اكتملت بالفعل من كل جانب بسرعة. قالت مقاومة آمها، بينما جروحها تلتئم بسرعة كبيرة، وبشكل مخيف..

"انت عارف انت عملت إيه يا غي؟!"

ثم انهارت على ركبتيها صارخة وهي تضرب الأرض بكفها بعنف شديد، وتجار بالبكاء..

"انت بؤّظت كل حاجة، كل حاجة باظت بسببك.. بعد الوقت دا كله"

ولدقائق تجمد الموقف تمامًا. سليم ملقى على ظهره في زهول لا يصدق أنه قد أطلق النار عليها بالفعل. سمير واقف يرمق المشهد مرتعبًا وهو لا يصدق نصف ما يراه، ولا يفهم النصف الآخر. ليلى جاثية على ركبتيها في نفس الوضع رافعة عينيها الدامعتين نحو السماء وقد التأمت إصاباتها تماما. وتوقف المشهد للحظات إضافية قليلة، قبل أن يبدأ الهول.

في البداية لاحظ ثلاثتهم أن ثمة توتر عام في الجو، قبل أن تبدأ الأمطار في التساقط. واشتد هطول المطر شيئًا فشيئًا، حتى انتهوا إلى هذا الصوت المزعج القادم من أعلى.. التفتوا نحو السماء في ذات الموضع، مصدر الصوت، ليروا نقطة حمراء صغيرة تنمو من العدم فوق موضع الشعارت تمامًا.

نهضت ليلى وهي تصبح في تهلل واستبشار، ملوحة بذراعيها للنقطة الصغيرة التي صارت فجوة متوسطة الحجم، وكأنها تائهة في جزيرة مهجورة، رأت أخيرًا طائرة تحمل علم وطنها. بينما ظل كل من سليم وسمير يتبادلان النظرات المتأرجحة ما بين خوف وقلق. ظلت ليلى ترمق الفجوة، في انتظار أن تتسع أكثر، وترى اللورد وأتباعه يمرون من خلالها. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، فقط استمر هذا الوضع لثوان قليلة، قبل أن تختفي الفجوة من السماء في لحظة واحدة بصوت انفجار مكتوم، وقد خيل إلى ثلاثتهم أنهم سمعوا صوت صراخ وحشي يصدر عن الفجوة، لم يلبث أن توقف مع اختفائها.

نزلت ليلى بعينها يائسة، نحو المتاهة الدائرية، لتكتشف أنها قد اختفت هي الأخرى، وقد عاد سطح المبنى سليماً مستويًا إلا من بضعة حفر صغيرة ناجمة عن لعناتها التي لم تصب أهدافها الحقيقية.

"محاولة ثانية لفتح البوابة فشلت، وانت السبب.. بعد كل الزمن دا..!"

همست بها ليلى بصوت خافت للغاية، وهي لم تزل ترمق الأرض في موضع المتاهة المخفية، فلم يفهما من كانت تعني على وجه الدقة. توقفت الأمطار فجأة، تاركة إياهم على هذا الوضع من اللبل المختلط بالجنون، ثم نهضت ليلى واقفة على قدميها بصعوبة، وقالت مواجهة سليم، متجاهلة وجود سمير، الذي تنحى إلى مؤخرة المشهد كأنه لم يعد هنا..

"أنت السبب، عارف؟ أنا اتمنيت لك الموت فعلاً، بس ماكنتش أقدر بسبب حماية اللورد ليك، هاتشوف دلوقت هو هياتصرف معاك إزاي بسبب دمي اللي سيحته على الأرض، أنا خلاص.. مابقاش عندي حاجة أعملها ولا أقولها غير كلمة واحدة.. تستاهل كل اللي هايجرى لك"

واستدارت متجه نحو حافة منتصف المكان وهي تهتف..

"Say Goodbye!"

لم يفهم سمير. لقد رأى ليلى إذ راحت تدور حول نفسها كالنحلة، وتزداد سرعتها مع كل لحظة تمر، حتى لم يعد يرى منها إلا طيفاً مضيئاً، وفتح عينيه على اتساعهما ليتمكن من استيعاب المشهد، الذي تطايرت فيه الأتربة وكتل الإسمنت نتيجة دورانها كالمثقاب. وفي اللحظة التي اختفت فيها من أمام بصره غائصة في قلب الأرض؛ بدأ يشعر باهتزاز وتخلخل المبنى الذي يقف على سطحه. وقبل النهاية سمع

صوت الانفجار الكبير الذي أيقظ الإسكندرية بأسرها.. قبل أن يشعر بأن الأرض من تحت قدميه قد اختفت، وكأنه طائر في الجو للحظات.. قبل أن يسود الظلام فلا يعود لوعيه وجود..

استيقظ.

فوجد أنه يفتح عينيه على عالم عجيب للغاية، شديد الإظلام، عطن الرائحة إلى درجة الشناعة.

وتقلصت أنفه بعنف، وهو يدور بعنقه بحثًا عن تفاصيل خيمته التي ألفتها، فلم يجد أيًا منها بالمكان. حاول النهوض مفزوعًا، ليكتشف أنه مقيد إلى فراشه الـ.. فراش؟!!

لم يكن فراشًا بالمعنى المتعارف عليه، بل كان عبارة عن لوح حجري طويل يشبه المذبح، وكان مقيدًا إليه بسلاسل حديدية غليظة. امتلأ قلبه بالهلع بينما يحاول اختراق حجب الظلام بعينه الواهنتين، ليتبين أين هو. قبل أن يسمع أصواتًا لحركة وكلمات خافتة تتردد بالخارج..

"لقد استيقظ.. حان الوقت"

كان الصوت مفزعًا للغاية، لا لسبب معين، لكنه وجد نفسه مع كل حرف يبلغ مسامعه، يرتجف، وتنغرس في عظامه برودة مخيفة. وارتجف بدنه بشكل أعنف، حينما سمع صوت الصرير المرتفع لباب حديدي يبدو أنه يُفتح..

كان الباب واقعًا خلف رأسه فلم يتبين أي تفاصيل، وبرغم أنه قد فتح عينيه بالفعل، إلا أن ضوءًا ما لم ينجح في التسلل إلى الداخل ولو بنسبة ضئيلة. وشعر بقيوده إذ تنحل بخشونة، قبل أن يُحمل من

كتفيه حملاً كالخرقة إلى خارج هذا القبو الرهيب، دون أن يرى أي شيء، ودون كلمة واحدة، لا منه ولا من غيره.

للمرة الثانية يستيقظ ليجد نفسه بهذا المكان.. ليواجه ذات الكيان المخيف.

كان آخر ما يذكره قبل الغيبوبة هو مشهد ليليان وهي تحيل ذاتها إلى قنبلة اخترقت المبنى المكوّن من ستة وعشرين طابقًا، من السطح حتى أساسات البناء على عمق طابقين تحت الأرض. ربما لاحظ أن ذلك الطبيب الذي يدعى سمير قد طار في الهواء كالكرة، وكان آخر ما رآه منه هو قدميه المعلقتين في الهواء، بينما رأسه المقلوبة تتجه نحو الأرض ببطء.. ثم أظلمت الدنيا أمام ناظريه قبل أن يفيق ليجد ذاته في هذا الموقف من جديد.

"سوف تنال فرصتك كاملة لتحقيق هدفك وهدفنا، ولكن إن فشلت.."

"ماذا ستفعل بي..؟!"

"سيكون لنا لقاء آخر، ولسوف تعلم!"

في توتر تذكر كلمات ذلك الكيان، وقد شعر أن النبوءة تتحقق، فلم يعد باقياً إلا أن يعرف نوع العقاب الذي ينتظره..

"اقترب أيها البشري.. لا تخف، فلن أقتلك"

خطوتان وجلتان تقدم بهما نحو العرش الصخري المنحوت بقلب الكهف..

"لقد أخبرتك أنك عائدٌ إلي لا محالة. فلمَ الخوف؟ أتعلم؟ إنني لست غاضبًا منك على الإطلاق، فلقد أبليت بلاءً حسنًا، وأديت الأمر كما ينبغي.. أهنئك! لا تظن أنك بفعلتك الأخيرة قد أضعت مني فرصة العبور، فإن كان قد ضاع من عمرك ما يعادل عشرة أضعاف منه، في سبيل حل الطلسم، إلا إن ما ضاع مني منذ بدأت دورة توريت (نجمة الأسرار) حتى الآن، قد يعادل الوقت الذي تقضيه في احتساء كأس من القرفة، أثناء جلوسك في شرفة مكتبك بنيويورك، على ارتفاع مئات الأمتار من سطح البحر.. فلا قلق هنالك مادامت القرفة متوفرة، أليس كذلك؟!"

هز رأسه مرتجفًا وقد فهم أن الكيان يتلاعب به، قبل الانقضاض.
ففضل الصمت منتظرًا الخطوة التالية..

"كنت أتمنى أن أتركك لحالك، تتصرف كما تشاء، وتقرر الحياة بالطريقة التي تحلو لك. ولكن للأسف الشديد، فإن اسم سليم داغر قد انمى بالفعل من سجلات التاريخ. لم يعد هناك من يذكر عنك أي شيء، ولا أعتقد أن لديك الفرصة للبدء من جديد. لذا فقد قررت مساعدتك بالطريقة التي رأيتها هي الأنسب. أتعلم؟ ستظل موجودًا، ستنال فرصتك في الحياة من جديد.."

ثم تغيرت لهجته، فجأة لتتساقط الحجارة من سقف الكهف..

"ولكنك لن تحيا كما يحيا البشر بعد الآن.. لن تستطيع أن تجيب من يسألك عن اسمك الحقيقي.. ستظل ملعونًا إلى الأبد.. إلى الأبد.. ستظل ترحل قاطعًا الأرض من المشرق إلى المغرب بلا هدف.. إلى الأبد.. إلى الأبد.. ستظل تحمل فوق كتفك جرمك، وتحمل أمام عينيك ما أسلت من دماء.. إلى الأبد.. لأنك لن تموت، كما أنك لن تحيا بعد الآن!"

وكان آخر ما سمعه هو جدران الكهف إذ تردد تلك الضحكة الرهيبة من جديد، بعد مرور كل هذا الزمن.. الضحكة التي لم يطلقها أحد.

ورغمًا عنه انطلقت من حلقه صرخة عظيمة، حين بدأ يشعر بوخزات شديدة تغزو كل خلاياه. ثم رأى ذرات جسده في التفكك رويدًا، حتى بدأ كيانه في الاستحالة إلى تراب. في النهاية توقف كل هذا عندما لم يعد باقياً منه إلا بضع ذرات، ظلت تطاير يمينًا ويسارًا، حتى اختفي كل أثر له بشكل تام. ولم تنفك جدران الكهف تردد وتردد صوت الضحكات الرهيبة..

"إيه رأيك في النهاية كدا، عجبتك؟!"

ابتسم سمير..

"ساذجة شوية، بس على الأقل ريحتني من التفكير. إنما فيه لسه نقطة صغيرة!"

"مم!"

"الدكتور دا اللي بوظ خطة الساحرة.. يا ترى مصيره كان إيه تفتكر؟!"

تنحرج الرجل وقال متصنعًا الجدية..

"أيوة أيوة، انت تقصد الدكتور اللي.. طيب! ممكن يكون فاق لاق نفسه مرمي في الشارع مثلاً، احنا اتفقنا إن الساحرة مش هاتنذيه، بس غالباً نسي كل تفاصيل الموضوع، ومش بعيد يكون لم كل حاجته وجه القاهرة وبدأ حياة جديدة.. إيه رأيك؟"

تأمله سمير بنظرة مضحكة..

"يا راجل! وإيه اللي يخليه ينقل حياته كلها من اسكندرية للقاهرة،
ما دام نسي كل حاجة عن القصة دي؟!"

قال الرجل ناظرًا إلى السقف في تعبير عن الملل..

"هو لازم يكون في تفسير لكل حاجة؟! وانت، إيه اللي خلاك تسيب
اسكندرية وتيجي القاهرة فجأة بالشكل دا؟!"

بدا سمير وكأنه قد فقد مرحه فجأة، فتجهّم للحظات قبل أن
يقول..

"أنا؟ أنا عمي مات من فترة قريبة، وانفصلت عن خطيبي بعدها
على طول، شوية أحداث غريبة ورا بعضها من غير رابط، كأن القدر
هو اللي رتب كل حاجة عشان النقلة دي تحصل!"

نهض الرجل مرتبًا على كتف سمير في مواساة، قائلاً..

"مش لازم تتعب روحك، وتدور ورا كل تفصيلة.. مش كل المشاكل
لها حلول، ولو لها، مش شرط نلاقها بنفسنا، حاول تعيش الحياة زي
ما هي عشان ماتتعبش.. يالا، أشوفك تاني"

"رايح فين دلوقت.. الفجر لسه عليه شوية، اصبر لما الشمس
تطلع"

"لأ كفاية قوي سهرتلك لحد دلوقت.. أنا كمان عايز ارتاح، تصبح
على خير"

نهض سمير مشيعًا صديقه إلى باب العيادة الجديدة، وقال..

"أنا مستنيك بكرة على العشا، لو اتأخرت هاكل لوحدي.. انت
حرا!"

ابتسم الرجل وهز رأسه نازلاً الدرج دون أن يرد. استوثق من أن سمير قد أغلق الباب من خلفه، فتوقف للحظات يستند برأسه على الجدار مجهداً، وهو يرمق باب عيادة سمير بشيء من العتاب.

وهز رأسه بعنف، كأنه ينفض عنها بعض الذكريات غير السارة، التي اقتحمت رأسه بلا استئذان. ذكريات تخص أناس كانوا سعداء، قبل أن تختلف حياتهم بشكل لا يمكن تعويضه. فلا يعود بجانب شقائهم مكاناً لشيء آخر..

ومرت أمام عينيه بسرعة البرق صورة صبي على أعتاب المراهقة، ملامحه طيبة، بها مسحة من الوسامة، وبعينيه يرمق تلك الفتاة التي تقف بعيدة عنه، بحسنها وسحرها وشرها ورقمتها ونظراتها الآسرة.. وتخيل أنه ربما لو كان الفتى قد أدار وجهه في إعراض منذ البداية، لما كان قد حدث ما حدث.

ودمعت مقلتاه للحظة، دون أن يهتم بحقيقة أنه لا يعرف هويته الحقيقية.. ماريو فيبوناتشي..

سليم داغر..

أو حتى حسن عدلي.

إن هي إلا مجرد أسماء ووجوه، لم يعد يهمه أن يحمل منها ما يحمل البشر العاديين.

"ربما لو لم تتدخل فيما لا يعينك يا دكتور، لما كانت ليليان قد اختفت، ولما لاقيتُ هذا المصير الذي لم أستحقه.. أنا بالفعل لم أستحق هذا، ولا أنت استحققت أن ترى كل أحباتك وأصدقائك يقتل بعضهم البعض، فتعيش وحيداً بالنهاية، ولا يعود بوسعك إلا البكاء فوق شواهد قبورهم.. كلانا لم يرتكب ما يستوجب هذا العقاب

الشنيع.. ولكن - أتعلم؟ - بالفعل نحن بشكل ما نستحقه! لا توجد أياذ بيضاء في هذا المنجم يا دكتور!"

وبمنتهى الاستسلام ترك جسده يتفكك، وتتحلّ ذراته كالغبار، حتى اختفى تمامًا من مكانه، وعاد ليتجسد بداخل عيادة سمير، ولكن في هيئة جديدة مبتكرة..

وأندھش سمير عندما رأى ذلك الصندوق الكرتوني يسقط من فوق رف المكتبة تلقائيًا، دون أن يمسه أحد، فنهض ليتأكد من محتواه، ليكتشف أنه بجانب أكوام الكتب القديمة التي زخر بها الصندوق، والتي رتبها وجمعها من العيادة القديمة بنفسه، كان هناك كتاب غريب لم يعتقد أنه رآه من قبل. كتاب مغلف بكيس من القماش المخيط شبه المهترئ. بشكل ينم عن طريقة بدائية عجيبة للحفاظ. وفوق الغلاف كُتب باللغتين الإنجليزية والعربية بخط شديد الرداءة :

(Don't read this book!)

(لا تقرأ هذا الكتاب!)

